دراسات في الإسلام

يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

أئمة الفقه الإسلامي

أبو حنيفة - الشافعي - مالك - ابن حنبل

للمستشار عبد الحليم الجندي

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

اللہ

جل جلالہ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون •

« قرآن كريم »

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين •

« حديث شريف »

تقديم

فى هذا الكتاب خلاصات لتراجم الأئمة الأربعة لأهل السنة . أعدت فى حجمها الحالى لتكون واحـدة من حلق السلسلة التى تنشر فيها . وهو يصدر فى بشريات فجر جديد ، بصـدور دستورى جمهورية مصر العربية ، واتحاد الجمهوريات العربية فى سبتمبر سنة ١٩٧١ . وفى صدرهما نص على أن دين الدولة الاسلام ، وأن الشريعة الاسلامية مصدر رئيسى للتشريع ، وفى دستور جمهورية مصر العربية نصـوص شتى على وجـوب مراعاة المستوى الرفيع للتربية الدينية ، وتقرير الحقوق فى حدود الشريعة الاسلامية . وكل نص على أن دين الدولة الاسـلام لا يجد مصداقاً له مثل تقنين الشريعة . فما أسطع أضواء الفجر الطـالع ..

كنا فى سنة ١٩٤٥ نهيب بالأمة فى مقدمة كتاب أبى حنيفـة بطل الحرية والتسامح فى الاسلام أن (نرجع البصر الى تاريخنا ذاكرين أن العلاج لا يستورد من الخارج اذا تحققت المنـاعة بانهاض القوى الذاتية للجسم الحى .. واذا كان نابليون قـد فاخر بقانون نابليون أكثر مما فاخر بمواقعه الستين التى أذهلت عباقرة الحرب وكان كل حظ القانون منه أنه صدر فى عهـده ؛ فكيف بأبى حنيفة وهو أكبر مستنبط للقوانين فى الاسـلام ..

لقد اعتز الاسلام بأسبابه عندما استمسك أبناؤه بآدابه • فلما ضيعوها بعبادة الذات والقعود عن التضحيات فارق سلطانهم أوجــه) •

وفى مقدمة الامام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصــول سنة ١٩٦٥ سجلنا التقدم الاسلامى فى « ان الشافعى لا يتقدم لقرائه كأبى حنيفة فى موكب الأمل وحده • ولكنه يتقــدم فى مواكب النصر الذى لاحت بشائره •• كانت الدول العربية بضع دول فأصبحت بضع عشرة • وكان تعــداد الدول الاســلامية عشرات الملايين فأضحى مئات الملايين • وفى طريق الاســتقلال ملايين أخرى ، وكانت الشعوب العربية أشتاتا فأصبحت جميعا تتنادى بالوحدة ، وكانت اللغات الأجنبية تزحم اللسان العربى فى معاقله فخلص اللسان العربى لذوبه • وأمسى لغة رســمية تدور حول الأرض فى المؤتمرات العالمية » •

وفى سنة ١٩٦٧ قلنا فى مقدمة مالك بن أنس (والمسلمون من فاتحة القرن ــ وكلما أنشب العالم الحرب ــ يتحسسون السبيل الى النهضة • ولقد قلنا قبل ما نكرره اليوم فى يقين وثقــة زادتهما التجارب العالمية اثباتا وقوة : ان ماضينا الضخم من تراثنا المسلم هو مركز الثقل الذى يحفظ توازننا •• والتــاريخ لا يعرف اماما كهيئة مالك وسعت حياته ثلاثة أجيال كبيرة وثلاث عشرة خليفة •• ولمــا جلس اليه ستة من الخلفاء •• فى يدهم مصاير القارات والحضارات كان ذلك تسليما من الزمان ، على طوله ، بأن فقهه يحمل عناصر العالمية والتقدم •• وما كان أعظمها

تجربة للفكر الحى العملى الذى يفعل الواقع وينفعل به • • والتاريخ يعيد نفسه اذا أصلح الناس أنفسهم) •

وفى سنة ١٩٦٩ دعونا لتقنين الفقه فى مقدمة كتاب أحمد ابن حنبل حيث نقول (•• وحقيق علينا وقد عرضنا أطرافا من صور الأئمة الأربعة وسيرهم فى اطارها التشريعى والتاريخى المقطوع القرين • أن نقول الحق ومعنا دلائله :

١ ـ ان الفقه الاسلامى الذى ترتفع أعلامه عالية فوق آفاق الشرائع الأخرى ممثل صادق لشريعة الاسلام والفكر الاسلامى كله • وأداة باصرة صقلتها التجارب للنماء الاقتصادى والتقدم العلمى والاجتماعى والسياسى •

٢ ـ ان المسلمين يتقدمون أو يتأخرون قدر ما يتقدمون أو يتقهقرون أو يبعدون من الشريعة التى جعلتهم خير أمة أخرجت للناس ••

٣ ـ والكاتب كجميع الذين عالجوا شرائع الغرب وطبقوها فى الاقطار العربية أو الغربية • يرى التشريع الاسلامى أرحب التشريعات آفاقا ، وأنبلها غايات ، وأطوعها أدوات ، وأجمعها للنزاهة القانونية وسلطان الارادة وحرية التصرف والحفاظ على المصلحة العامة والخاصة وحقوق الرجل والمرأة (صنع الله الذى أتقن كل شىء) ••

وسيظهر للقارىء حقائق مسلمة أخرى سجلها القرنان الأخيران حسبنا منها الآن :

١ ــ أن الدول الاسلامية التى صرفها الاستعمار الغــربى الى تشريعات أوربة قد انصرفت راغمة الى الآبار الصــغار عن النهر العظيم الذى يجرى فى ثراها .

٢ ــ أن رجوع الفقه الى الشريعة كمثل عودة الغريب الى وطنــــه ..

٣ ــ ان أحكام هذه الشريعة وتطبيقاتها الناجحة ثبتت على الامتحان أربعة عشر قرنا مديدة على كيان الزمان عريضة على وجه كرة الارض مع الاستقرار والاستمرار .

* * *

وبصدور الدستور سنة ١٩٧١ انتهت حقبة الأمل والمحاولات الى مرحلة التنفيذ .

فالحمد لله أولا وأخيرا .. أن صير تقنين الشريعة مسئوليــة عامة على الامة والدولة ورجال القانون والشريعــة .. وأن استجاب الدستور الى آمال جيل عبرت الكلمات السابقة عن مطالبه ، وفقه الشريعة أداة للنهضة ووسيلة للتقدم وفيها كل القواعد الخلقية وكثرة من القواعد القانونية التى تجتمع عليها الأمة فى كل قطر عربى ، وبيت عربى ، وفــرد عربى فى الحقوق والواجبات العائلية أو العامة ، الاقتصادية أو الاجتماعية ، وفى العبادات وأساليب السلوك .

* * *

واستعراض حياة الأئمة للأمة ، ضرب من ضروب تجلية الشريعــة .

وحياة الامام فى ذاتها قدوة .

ومن ثمة كان جهاد الرسل بعض معالم الرسالات . وكان من اجتهاد الأئمة جهادهم بالنفس وبالفكر ، لتخليد الشريعة، ولاطلاق الحرية للعقل الانسانى لتقديس الخالق جل ثناؤه ، والعمل بكتابه عن فطنة ومعرفة ، واجتناء خيرات الطبيعة التى أحلها الله لعباده .

وكان من طبائع الاشياء أن يخوض الأئمة الأربعة الفقهاء معركة الفكر الانسانى فى بسالة وجلال ، بأفكارهم وأجسادهم ، فيخير أبو حنيفة وابن حنبل بين حرية الرأى وحرية الجسد فيختاران السجن الصغير الذى يحبس الجسد على السجون الكبيرة التى هى الدنيا اذا لم تكن فيها الحرية . ويموت أبو حنيفة وهو ساجد يصلى لله فى السجن . ولا يكف الجلادون عن أحمد بن حنبل الا بعد أن يفقد وعيه فلما أفاق صلى وجراحه تشخب دما . ويضرب مالك بن أنس فى سبيل اعلان السنة حتى ينخلع كتفه . ثم يساق الشافعى من جراء اعلاء كلمة العدل الى موقف الروع فى حياته حيث تهاوت على عينه وبين يدى هرون الرشيد رءوس — متهمين تسعة ولم ينج الشافعى — عاشرهم — الا باحسان دفاعه عن نفسه لأن الله أراده للاسلام .

ولئن اجتمعت خصائص الاسلام وكبريات فضائله فى حياة الأئمة الأربعة لان فى مذاهبهم جماع فقه الشريعة .

وما المذهب الا منهج واسع يهدى سالكيه . وبهذا تعددت المناهج الى الغاية الكبرى لتهب المسلمين الى جوار اليسر ودفع الحرج اللذين تباهى بهما شريعتهم يسرا آخر فى الاستقراء والاستنباط لمعرفة أحكامها وتطبيقها فى الحياة الواقعة .

ولئن كان التسليم لهم بالامامة فى حياتهم يندر فى التـاريخ نظائره ، لندرة ما ينعقد اجتماع الاحياء على الاقرار بالفضل لمعاصريهم ، والناس لا يقيمون التماثيل للعظيم الا بعـد أن يفارق عالمهم ، ان التسليم لفقه الأئمة على طول العصـور ، وفى شتى الحضارات والقارات آية لله على خلقه بصلاح هذا الفقه لكل عصر ومصر وبهذه المثابة تتردد هذه الأسماء صباح مساء فى كل الأسماع كلما صلى الناس وصاموا أو اتجهوا الى بارئهم . فخلدوا خلود الفقه الذى خـدموا به الشريعـة . وانمازت بين المشترعين العالميين آثارهم كما تنماز الكواكب الباقية على الزمان كله تضىء كرة الأرض كلهـا من المصابيح التى تشتعل وتنطفىء فى جيل واحد أو جيلين وصقع واحـد أو صـقعين .

وفكر الأئمة الأربعة فكر واحد فى منبعه أو مصبه أو السلسال الطهور الذى يتدفق فيه وان اختلفت طريقة جريانه . بحكم النشأة والبيئة وظروف الزمان والمكان .

اذا كان أبو حنيفة أكبر عقل فلسفى فى الاسـلام بتقعيده نظريتى الايمان والاجتهاد وجلاء أثرهما فى الأمة . أو كان

الشافعى أكبر عقل علمى فى الاسلام بتأصيله طرائق الاستنباط العلمى التى تتمثل فى أصول الفقه فتتجلى فى العلم الاسلامى خصوصا والفكر العالمى عموما بطريقة التجربة والاستخلاص التى تحررت بها أوربة من القهر الكنسى فبلغت علومها مبالغها الحالية . أو كان مالك بن أنس قد وقف الى جوار السنة النبوية موقف حماة القلاع وحراس المنائر ليهتدى بهما كل الأئمة . أو خاض أحمد بن حنبل معاركه البطولية فى الدفاع عن الكتاب والسنة واتباع الأمر الأول ، بجهاد النفس والناس والخلفاء ، ان الأئمة الاربعة قد اجتمعوا فى هداية أمتهم بواقع حياتهم وبأفكارهم جميعا ، أى بالقدوة الشخصية والنظريات العلمية معا .

والناس لا تصدق القائل الا أن تراه يعمل .

* * *

والمسلمون الذين يخوضون معاركهم اليوم فى القارات الخمسة ــ فى ساحات الحرب أو دهاليز السياسة أو معاهد التعصب أو أسواق التجارة مطالبون بأن يرجعوا البصر ليروا بأى شىء كتبت لهم النصرة من قبل ، وأن يتذكروا أن حكمة القرون ليست مقولات ككل المقولات ، وانما هى تجارب ثبتت على الزمان بطوله وأنتجت مقدماتها آثارها فى كل موقف دون تخلف .

ألا : وان آخر هذه الأمة لا يصلح الا بما صلح به أولها • والدول والأمم تبقى — بحق — قدر ما تلتزم القانون الذى أقامها • وكلما أبعدت منه أبعدت من سبب وجودها •

ألا فليرجعوا الى المدرسة الكبرى للسلامة العقلية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية • مدرسة العقيدة التى تهب ايمان الفاهمين وقناعة غير اليائسين • وهاتان همـــا الأداتان اللتان ترفعان الفرد الى مشارف الكمال ، وتدفعـان الجماعات الى مستوى البطولات ، وتجملان الحياة بالطيبـات التى أحلها الله لعباده وتكملان الوجود المادى المجرد بالفكر الحى الذى أمر الخالق عباده باستعماله ليتفيئوا نعماءه ، ويستنبطوا آيـاته •

وبهذا الفكر الحى قدر الفقه الاسلامى على التطور لتحقيق مصالح البشر فى كل عصر •

والمسلمون الذين يتنادون الآن من كل مكان بالرجوع الى الاسلام يعلمون أن التطبيق الصحيح له لا يكون الا بالتزام فقهه كما تهدى اليه أصول هذا الفقه المنفتح على المستقبل • يستوى فى ذلك فقـه الأئمة الأربعة أو غيره من تراث الفقه الاسلامى أو الفـكر الاسـلامى الذى يتلاقى على مقاصـد الشريعـة •

* * *

والعرب الذين نصت دساتيرهم أو قوانينهم المدنية على اتخاذ الشريعة مصدرا رئيسيا للتقنين أو مصدرا للحكم اذا لم يوجد تقنين، مطالبون باشتراع هذا التقنين ليفيدوا لأنفسهم أسباب بعث حضارى شقت طريقته من صميم الاسلام وانما مهدت لهم شريعتهم كل التمهيد فى الاجتهاد باقتصار كثرة النصوص على الكليات ، لتترك للحكام وللمفتين والناس فى مواقعهم حرية الحركة ، فى حدود مقاصد الشريعة ، كهيئة ما تسع النصوص والأحكام القليلة الخاصة بالشورى والمساواة والبيعة العامة، أشكال الحكومات التى تلتزم العدل ويشترك فيها الناس ويراقبون من عملها بآرائهم الحرة فتؤمنهم من الجوع والخوف . وكهيئة ما تسع نظريات الحقوق التى هى منحة من الشارع سبحانه وتعالى كل وجوه حسن استعمال الحقوق فى الناس وتضامن جماعتهم وتستبعد وجوه الاستبداد بالحقوق والاستعلاء بالقوة التى تخلفت فى الفقه الأوربى من أصوله الوثنية التى يستمدها من تراث آبائه الرومان وأجداده اليونان . وكمثل ذلك أنشأت الحرية الفكرية والمساواة اللتان أمر بهما الاسلام أصل الاباحة الذى أبلغ « سلطان الارادة » وحرية التراضى أعلى مبالغهما قبل أن تقررهما الثورة الفرنسية وقانون نابليون بأكثر من ألف عام ، واحتلت المرأة مكانا فى المجتمع تحاول أن تصل اليه نظيراتها فى العالم الغربى المعاصر .

وعندما يسهم المسلمون بتقنينهم فى تيار الحضارة العالمية سيدلون بأرفع وأنفع ما يملكون . وستظفر منه الحضارة

المعاصرة فى الشرق والغرب بمناهج تسدد خطوها نحو الحياة الأفضل وبهذا نسهم بنصيبنا الضخم من الحضارة •

والقوانين فحوى الحضارات وجماع خصائصها •

وستحل قواعد هذا الفقه الخالد شتى المشاكل التى عصفت رياحها بأوربة منذ قرنين وما تزال تعصف • والذين ظهروا على الفقه الغربى وفقه الشريعة — والكاتب منهم — يرون فى ذلك احدى المسلمات •

وسيكون لجيلنا الحالى فضله : أنه مد الأسباب من الاسلام لتقدم البشرية وأقام الجسور بين المستقبل المأمول للحضارة العالمية وبين فقه الشريعة •

الإِمَامُ أبُو حَنِيفَة

أبو حنيفة ــ النعمان بن ثابت ــ هو الامام الأعظم : الرجل الذى هيأ للمسلمين من وسائل الحرية والتسامح والاجتهاد أدوات صالحة لنشر الشريعة • فمكن لفقه المعاملات والعبادات والحياة الواقعة أن يتطور فى خدمة الحضـارات المختلفة وأن ييسر التكاليف التى تدعو اليها الحنيفية السمحة •

الرجل الذى يتراءى للناس من علمه ، وزهادته ، وعبادته ، كالصحابة والتابعين • ومن ثرائه وجاهه : كأصحاب التيجان • ومن جلال شأوه فى الفقه : كالجبل الذى يزحم الأفق • وينفق أمواله فى النـاس آلافا ومئات آلاف ، لـكنه يعيش عيشـة الكفاف ، وهو بين تلاميذه واحد منهم ، اذ يجادلونه ويخطئونه ، فيرفق بهم ، لينشئهم على قرع الحجة بالحجة وعدم التسليم الا للدليل •

رداؤه وقميصه بأربعمائة درهم فى زمن كان الـكبش فيه بدرهم ! جبته من فراء السنجاب أو فراء الثعالب أو فراء الفنك فاذا وقف بين يدى الله فى الصلاة لبس أفخمها وهـو يقول : « التزين لله أولى من التزين للناس » •

واذا مشى فى الناس شاع الأرج من اردائه فسـبقه حتى ليعرفه الناس قبل أن يروه •

ليله كله — الا أقله — للعبادة • فـاذا دخلت داره بهرك عراؤها الكامل الا من الحصـير العارى • أما طعامه ، فقليل جدا من السويق أو خبز الشعير أو ثمرات • وأما أمواله فجارية على الطلاب فى أعظم مدرسة علمية عرفها تاريخ الاسلام • فاذا ذكره مذكر بالعيال قال : «الله تعالي للعيال •» ثم قرأ قوله تعالى : (وفى السماء رزقكم وما توعدون •)

وهو العامل بيده • يعلم الناس كيف يفضل التاجر الصدوق على من يتفرغ للعبادة ، لأنه يمتحن فى كل بيعة ويأتيه الشيطان من قبل السـعر أو الميزان أو المكيال ، فيثبت للنـاس حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : (ان أطيب الكسب كسب يد التجار الذين اذا حدثوا لم يكذبوا واذا ائتمنـوا لم يخونوا واذا وعدوا لم يخلفوا واذا باعوا لم يطروا ، واذا كان عليهم لم يمطلوا واذا كان لهم لم يعسروا) وقول ابراهيم النخعى — شيخ مدرسة العراق : (كان الصانع بيده أحب اليهم من التاجر وكان التاجر أحب اليهم من البطالة) •

والصناعة انشاء وابداع • والتجارة استعمال كريم للصناعة ولذلك كان التجار الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين وعملهم بأيديهم • حتى لتدخل فى أسمائهم أسماء التجارات والصناعات كالخصاف (من خصف النعال) والصابونى والبقالى والصيدلانى والحلـوانى والقفـال والجصـاص (من الجص) والدقاق والقدورى ، ليدلونا على مكانة العمـل عموما فى أمة ، عمـل

رسولها بيده وعملت زوجاته • وان فقه الحنفية السمحة تعمل له عقول العاملين فى الدنيا لا الوافدين من الصوامع والبيع أو الهابطين من صياصيهم بأفكار نظرية لا تمثل الحياة الواقعة •

وهو الجالس فى مسجد الكوفة من سنة ١٢٠ حتى سنة١٥٠هـ مجلس عبد الله بن مسعود الذى أرسله عمر الى أهل الكوفة ، معلما ووزيرا ، وفضلهم به على نفسه كما قال • وآلت الى أبى حنيفة عنه سنن الرسول — وفقه عمر فعلمهما للناس • وبث فيهم أسباب الاطمئنان فى الدنيا ، والأمل والمغفرة فى الآخرة فى زمن كفر فيه الخوارج أكثر الذين لا يعملون بأوامر الدين • وبهذا الاطمئنان على الايمان سلمت رءوس من الذبح وفتحت أبواب للأمل •

وهو أكبر مشرع على الاطلاق اذا قورن برجال القانون من عصر اليونان الى عصورنا الحديثة — يتصدى لاستنباط الأحكام والعمل بها فى حرية فكر ونزاهة رأى ويستخلص لنفسه منهاجه الذى تابعه عليه المسلمون وخصه التاريخ من جرائه بوصف (امام الرأى)

وتناقلت حلق الجدل مقولته المعلمة للأجيال (اذا كان التابعى رجلا فأنا رجل) • وتوارثت محافل الفكر الاسلامى من مواريث الحرية والتسامح اللذين علمهما للناس مقولة أخرى (لو أمكن أن يكفر امرؤ من تسعة وتسعين وجها ولا يكفر من وجه واحد يرجح عدم التكفير لخطره فى الدين) •

وهو الامام الذى دخل السجن ليستشهد فيه حتى لا يظلم ليعلم المسلمين بالموقف الأخير من مواقف حياته « ان اجتهاد الآراء اذا كان درجة فضل فالعمل فى سبيلها أفضل » •

فاذا رجعنا البصر الى حياتنا اليومية ، رأينا مشاركاته المستمرة لنا فى أداء العبادات وفى الفقه وبخاصة فى أنظمة الأسرة والميراث والزواج والطلاق والنفقات الى آخر ماتضمنته قوانين الأحوال الشخصية للدولة المصرية ولكثرة شعوب الاسلام • تجرى نصوص قوانينها أو أحكام قضائها على أرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة •

* * *

وفى منتصف القرن الماضى دخلت الامبراطورية العثمانية بقوانينها عالم الحضارة الغربية فألفت لجانا من علماء الاسلام فاختاروا لها من فقه أبى حنيفة قانونا مدنيا يفوق بكثير جدا القانون الفرنسى بما فى الشريعة من وسائل التيسير والتطور • وبهذا صدرت مجلة الأحكام العدلية والتزمتها تركيا والتزمتها الأمة العربية حتى منتصف القرن العشرين •

وأعدت مصر قانونا لمحاكمها الوطنية بعد أن اضطرتها دول أوربا الى انشاء محاكم مختلطة للأجانب تتبع فى مصر القانون الفرنسى ، لكن الجيش البريطانى دهم مصر فى سنة ١٨٨٢ فألزمتها الهزيمة أن تترجم القانون الفرنسى وتتبعه فى محاكمها الوطنية • فلم يعمل بالمجموعة الفقهية التى جمعها قدرى باشا

ـ وزير العدل الوطنى ـ وهى المجموعة المسماة (مرشد الحيران لمعرفة أحوال الانسان على مذهب أبى حنيفة النعمان) •

وهذه المجموعة من النصوص تثبت صلاحية هذا الفقه للتمكين لحضارة العصر وتؤكد لجمهورية مصر العربية التى جعل دستورها فى سنة ١٩٧١ مبادىء الشريعة مصدرا رئيسيا للتقنين مبلغ ما فى صنعها من التوفيق •

واذا كان مذهب أبى حنيفة يهىء للأمة هذا التشريع المتكامل فكيف اذا انضافت اليه الأفكار الفقهية الاسلامية من كل المصادر •

الرجل والتاجر

ولد النعمان فى سنة ٨٠ للهجرة ، واختلف فى صباه بين التجار فى سوق الكوفة عاصمة العراق ثم درس بالبصرة ، خاصة ، علم الكلام (علم الجدل فى أمور العقيدة واثبات الحقائق الدينية بدلائل عقلية) وكانت معقل المتكلمين الأوائل• ثم عدل عنه الى دراسة الأحكام القانونية التى تحكم معاملات الناس وعباداتهم أى علاقاتهم بخالقهم وبمجتمعهم • لكنه أفاد من دراسات البصرة دراسة العربية الفصحى والاقتدار فى الجدل •

على أن دراسة القانون وتدريسه لم يقطعاه عن التجارة • لقد كان له فيها وجوه عبادة : من السعى للرزق ، الى افشاء

النعمة بين الناس أو الأخذ بأيديهم ، الى اقامة أعظم مدرسة فقهية عرفها الزمان حتى الآن • وبالتجارة حل أبو حنيفة عقدة الفقر الذى عود الناس أن يلازم أصحاب الفكر ، فتهدر الفاقة مزاياهم • وكلما بعد الفقيه من الحاجة قربت فتواه من الله •

واذا لم يكن الفقه أداة للطعام تداول الدنيا كلها بين آنامله! والشافعي هو القائل : « لا تشاور من ليس فى بيته دقيق • فانه موله العقل • » والرسول يقول : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » •

اختار أبو حنيفة لدكانه دار عمرو بن حريث صاحب النبى • فهذا أظهر مكان • وابتكر خصائص جديدة للدكان • مثل عدم الاعلان • وانصاف المشترى منه والبائع له • والقناعة فى الربح • والأمانة فى العرض والطلب • ووقار الفقيه التاجر •

طلب رجل ثوب خز فنشره ابنه بين يدى الرجل وهو يقول : « صلى الله على محمد » قال أبو حنيفة : قد مدحته ! ورفض أن يبيعه •

وقبض تلميذ كان يتولى البيع فى الدكان ألف درهم فى ثوب لا يستحقها • فغضب الشيخ ورد ما زاد من الثمن •

وجاءته امرأة بثوب تبيعه قال كم تريدين ؟ قالت مائة ـ قال يستحق أكثر وما زال يزيد وهى تزيد حتى قالت أربعمائة فقال : بل يستحق أكثر • وحسبته يهزأ منها • قال هاتى رجلا فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة درهم •

وللنساء فى دكانه مثل الـــذى لهن فى حلقته فهو فى الحلقة يقوم اليهن يحصنهن من احداق الرجال • كما قال • فى الدكان يقول : اذا ــ قامت المرأة من موضعها فلاتجلس فيه حتى يبرد •

وهو يقول من وصف خف امرأة صغيرة أو كبيرة فقد وصف قدمها • ومن وصف قدمها لم يكن عدلا •

وباع شريكه ثوبا بثلاثين ألف درهم فيه عيب لم يبينه فبحث أبو حنيفة عن المشترى ليرد المال فلما لم يجده تصدق بالثمن كاملا وأبى الا فصالا • من شريكه •

ولعل أصدق الأوصاف لتجارة أبى حنيفة قول هذا الشريك: « جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع منهم فلم أر أحدا أجمع لهذه الخصـــال من أبى حنيفة • وقوله (فى طول ما صحبت أبا حنيفة وخالطته لم أره يعلن بخلاف مايسر ولم أر أحدا يتوقى ما لا خطر له مثلما كان يتوقاه • وكان اذا دخلت عليه شبهة من شىء أخرج من قلبه ذلك ولو بجمع ماله) •

والعالم الذى يبطن غير ما يعلن انما يتجر بعلمه •

وأبو حنيفة يقول لأبى يوســف : (ولا ترض من العبادات الا بأكثر مما يفعله غيرك فان العامة اذا لم يروا منك الاقبال على الطاعات بأكثر مما يفعلونها يعتقدون فيك الســوء وقلة الرغبة فيهــا ويعتقدون أن عــلمك لا ينفعك ولا يفيدك الا ما أفادهم الجهل الذى فيهم • وكن مع الناس على حذر • وكن

لله فى سرك كما أنت له فى علانيتك • فلا يصلح أمر العالم الا بأن يجعل سره كعلانيته •

والناس لا تصدق القائل الا أن تراه يعمل • واذا لم يجار سلوك العالم علمه كذب كل منهما صاحبه •

ومع كل هــذه التقــوى فىالبيع والشراء ربت تجارة أبى حنيفة حتى بلغ من ازدهارها أن دس خصومه لدى أبى جعفر المنصور أن أموالها استعملت فىتقــوية (ابراهيم بن عبد الله ابن الحسن) اذ خرج على أبى جعفر ليقيم دولة للعلويين •

فى الحلقــة :

والحلقة حلقة الطهارة

فالشيخ يدرس أن الماء المستعمل غير طهور • ومن أجل ذلك اتخذ أتباعه حياضا للوضوء ذات صنابير ينزل منها الماء لأول مرة فنسبت الصنابير الى أبى حنيفة وسميت « الحنفيات » واقترن اسمه بالطهارة والنظافة •

والشيخ يجعل نفسه مسئولا عن صلاح حال الناس فيحتفظ دائما تحت المصلى بصرر فيها دراهم • رأى يوما جليسا رث الثياب فدعاه ليأخذ صرة • (فيها ألف درهم) قــال الرجل لست أحتاج اليها فأنا موسر • قال الشيخ : أما بلغك الحديث ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده • فينبغى لك أن تغير من حالك حتى لا يغتم بك صديقك ؟

والشيخ يعلم تلاميذه أن آراءه وآراءهم مجرد اجتهادات وليست مسلمات • فيقول : (رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا) ولقد يطول بحث المسألة الواحدة أياما وليالى أو شهرا أو أكثر فاذا انتهت الحلقة الى رأى فيها قال ضعوها فى الباب الفلانى •

وبهذا المنحى الجماعى فى الحلقة بدأ تدوين الفقه الاسلامى على نطاق واسع واقترن اسم أبى حنيفة بالتدوين — قالوا ان « كلمة » حنيفة — معناها الدواة باللغة النبطية وأن الشيخ سمى أبا حنيفة لكثرة استعمال الدواة لتدوين الفقه •

وعند ما يذكر فضل تدوين الفقه الاسلامى الى جوار تدوين الأحاديث والسنة أو تدوين الكتاب العزيز يذكر اسم أبى حنيفة بين كبار الرجال الذين خلدوا شريعة الاسلام •

وفى هذه الحلقة تتجلى خصائص الشيخ — وأهمها التيسير والحرية فاليك أمثالا فى التيسير •

فأبو حنيفة لا يحمل المتوضىء من الفروض أكثر مما ورد فى آية الوضوء ويرى الوضوء لا ينقضه لمس (الأجنبيات) بل لا ينقضه الا المباشرة الفاحشة •

ويجيز الشيخ افتتاح الصلاة بعبارة (الله أكبر)بلغة أجنبية وان كان المصلى قادرا على النطق بالعربية لأن الله يعظم بكل لسان ، وهو وحده الذى أباح قراءة القرآن فى الصلاة باللغة الأجنبية وان قيل انه عدل عن ذلك •

وكما ييسر على المصلين عموما يسر على المسافرين خصوصا فهو يوجب قصر الصلاة الرباعية عند السـفر الى ركعتين ولا يكتفى باجازته .

وفى المعاملات يرى (العادة محكمة) و (المعـروف عرفا كالشروط شرطا) وفى الزواج لا تهمه النية مادام لم يعلنهـا المتعاقدان .

واليك أمثالا للحرية : ـ

هو لا يجيز الحجر على السفيه احتراما لشخصيته وتأخيرا للقيمة المال وتقويما للآدمية : أى الحرية .

ومن الحرية وايجاب تداول المال نادى ببطلان الوقف ـ وقد أخذت برأيه مصر اذ أحدثت اصلاحا بعد الثورة فى سنة ١٩٥٢ ميلادية .

والذين نسبوا اليه اجازة الوقف قصروها على ثمرة العين لا العين .

ومن الحرية لا يبيح التدخل بين البائع والمشـترى الا اذا تعلق بالثمن ضرر للعامة . فتلك اذن « حرية » العامة .

ومن اهتمامه بالعامة لا يجيز احتكار الأقوات ولو كـانت أقوات الحيوانات وأبو حنيفة يرفع المرأة الى مستواها الذى

لا تكاد تبلغه فى أمم الغرب فى القرن العشرين . فهـو يبيح للمرأة أن تجلس للقضاء قاضية فيما تقبل فيه شهادتها .

ويجعل للحرة البالغـة أن تزوج نفسـها ممن ترغب دون تدخل الولى . سواء أكانت بكرا أم ثيبا . ولا يرى جـواز اجبار البكر البالغة على زواج .

فى الفقـــه

يقول أبو حنيفة فى الايمان مقولته الجـامعة (أهل القبلة كلهم مسلمون ولا يخرجهم من الايمان ترك شىء من الفرائض)

فهو يرى أن الايمان يتم بالتصديق بالقلب والاقرار باللسان والله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . فـلا بأس على الايمان (من حيث الوجود) اذا لم يقم المسلم بالواجبات الدينية أو الأعمال الصالحة . لأن الاقرار بالايمان كاف لاثبات تمامه . ولو ارتـكب المؤمن كبيرة فهو لا يفقد الأمل فى عفو الله . ولا أحد يتيقن أن الله لن يغفرها له بل ان الأجمل بالناس أن يستغفروا له .

أما الشرك فظلم عظيم لايغفره الله . والشرك نقيض الايمان

وظاهر أن أبـا حنيفة يعرف الايمان تعريفه الفلسـفى أما الأعمال المطلوبة من المؤمن ، والتى يثاب عليها أو يعـاقب اذا لم يفعلها أو فعل السـيئات ، فهى فـرائض على المسـلمين

لا يعفون منها مادامت بهم حياة • وأبو حنيفة يحض الناس على القيام بها بالقدوة فيهم والتعليم لهم •

ولكن فائدة التعريف كانت كبيرة اذ أسكتت أصواتا لكثيرين يكفرون أو يفسقون من أجل ذنوب كثيرة •

وأبو حنيفة يجتهد رأيه فيما ليس فيه نص • ويخرج على السلف الذين يقولون (لا أدرى) فيما لم يسبق فيه نص • ذكر ذاكر أمامه قول الامام الشعبى (لا أدرى نصف العلم) فرشـفه أبو حنيفة بكلمة لاذعة فليقلها مرتين ليـكون له كل العلم •

والحلقة عاملة دائبة ليل نهار • والعمـل الجمـاعى كفيل بايجاد اجابات عن المسائل حتى لا يتوقف حكم القانون فى شئون الناس •

والشريعة تأمر بالاجتهاد • والحوادث تطرأ وتتجدد ماتجدد الزمان • والشريعة شريعة الزمان كله •

ان أبا حنيفة يفرع الفروع ويفترض الفروض التى قد تقع أو لا تقع ويضع أحكامها على أساس القيـاس وتقدير علل الاحكام • لا يلتزم الا بالنص من القرآن وهو ثابت أو بالنص من السنة ــ اذا كان ثابتا ــ أو بما أجمعت عليه الأمة • فاذا لم يجد نصا قاس على نص • لكنه فى بعض الأحيان يخصص القياس بدليل أقوى منه فى مسألة لا يسعف فيها القيـاس

الجلى وهذا ما يسمونه (الاستحسان) ويصفه البعض « بالقياس الذى هو أرفق بالناس » .

* * *

سئل : اذا قلت قولا وكتاب الله يخالف قولك ؟ قال : أترك قولى لكتاب الله قيل : فاذا كان خبر رسول الله يخالف قولك ؟ قال : أترك قولى بخبر رسول الله . قيل : فاذا كان قول الصحابى يخالف قولك ؟ قال : أترك قولى بقول الصحابى . قيل فاذا كان قول التابعى يخالف قولك قال : اذا كان التابعى رجلا فأنا رجل .

انه يجتهد رأيه كما صنع زعماء الفكر من الصحابة.والمجتهد دائما مثاب سواء أخطأ أم أصاب . وللمصيب أجر الصواب وأجر الاجتهاد . ولقد طالما شجع الرسول . عليه الصلاة والسلام ، المسلمين على أن يجتهدوا .

وباجتهاد الرأى رفع أبو حنيفة أعلام الابتداء والابتكار ، على أساس الكتاب والسنة . وهى الأعلام التى رفعها الأئمة . ونريد اليوم أن نرفعها عالية .

لم تستطع مدرسة أبى حنيفة أن تقبل الأحاديث الا اذا كانت متواترة ــ أى روتها جماعة يؤمن تواطؤها على الكذب عن جماعة يؤمن تواطؤها على الكذب ــ أو كانت مشهورة . وعلى هذا قلت الأحاديث ، التى استعملتها . فالتزمت أن تستعين بالقياس ، وبهذا اتسعت دائرة القياس من أجل التضييق فى قبول السنن .

وكان لأبى حنيفة عذر فى التضييق فى قبول السنن لقلة مابلغ العراق من أحاديث وما انتقل اليه من الصحابة وشيوع الاختراع حتى اذا جاء الشافعى وضع الأساس العلمى لقبول الأحاديث فاتسعت الدائرة •

والحق أن القياس قد استعمله الصحابة والتابعون وبعض فقهاء الحجاز والعراق فأبو حنيفة لم يخترعه • وانمـــا هو اكتشفه • كالمكتشفين الذين يفتحون أرض الله لعباده •

وسيذكر التاريخ ما أصابه من الاضطهاد من أجل كشـــفه الخالد • فالأذى هو رجع الصدى للصوت الحر • وهو ضريبة يدفعها المبتكر • بل كثرة أصحاب الفكر • وبقدر ما يوضع فى الميزان من حقد الخصوم وهوى الأتباع تبقى آثار الرجال الصالحة •

كأنما يضيق صدور سكان هذا الكوكب الواسع بأســـماء النابغين ، وان كانت لا تضيق بأجسادهم ، والا ففيم لا يطيق الناس قيام المجد الا بعد أن يرحل صاحبه عن دنياهم •

وجرى حديث هذه الدروس فى مسجد الكوفة فجاء الأئمة فى الكوفة وقابلوه بمكة والمدينة يجادلونه ــ وبخاصة فى الحج ــ فلقد حج خمسة وخمسين حجة ، وبهذا تلاقى أبو حنيفة مع مشيخة العلم فى عصره كالأوزاعى والليث والامام جعفر الصـــادق ، وكان يرفق اذ يجادل مالـــكا احتراما له • ومالك يقول عن هدوئه اذ جادله « ما أحلمـــه » ــ ولولا حلم أبى حنيفة على مالك لما ترك مالكا يتصبب عرقا •

ازدهرت آراء أبى حنيفة فى حياته • ومكن لها تلاميذه من بعده ، فصيروا مذهب أبى حنيفة (مذهب السلطان) مذعين الرشيد أبا يوسف تلميذ أبى حنيفة قاضيا للقضاء وقصر قاضى القضاة : القضاء على تلاميذ مدرسة أبى حنيفة وكان الرشيد يتعلم على أبى يوسف ويلتمس عنده المخارج •

زعموا أن زبيدة غاضبت هرون الرشيد فحلف يمينا بالطلاق الا تبيت ليلتها فى بلد يدخل فى ولا يته • فلما سكت عنه الغضب فعل الهوى أفاعيله • وتصايحت الحاشية ألا أين نصر الله — فجاء به قاضى القضاة — قـال : « فلتبت زوج أمير المؤمنين بالمسجد فانه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد — وان الله سبحانه وتعالى يقول (وأن المساجد لله فلا تـدعوا مع الله احدا) •

وخلد المذهب محمد بن الحسن — بتآليف سجلت تفاصيله وأضاف بقية التلاميذ الى فتاوى الامام حتى ليعتبر المذهب أول عمل جماعى لمدرسة بتمامها •

وأبو يوسـف ومحمد هما (الصـاحبان) كثيرا ما تقترن آراؤهمـا بآراء الامام وكثيرا ما يختلفون • فمن كان معـه الامام رجح رأيه • فاذا اجتمعا ضده كان للمفتى الخيار بين رأيه وبين رأيهما •

وقيل :

من دليله أقوى رجح وذا ، لمفت ذى اجتهاد ، الأصح

مع المنصـــور

ناهز الشيخ السبعين من العمر فى حياة كلها هزاهز وفتن • والعمل بالقانون ليس دائما بعيدا عن السياسة فى عصر تعاقبت فيه الخلفاء والولاة والدول • وتنازعت الملل والنحل • وتتابعت الثورات • والمشرع الأكبر لا يمر غير مرئى ، والنيران تشتعل من حوله •

ولقد طالما تعرض للموت والأذى فى حلقته من الخوارج أو المتعصبين أو الولاة الذى رفض أن يلى القضـــاء لهم أو أن يعمل فى التوقيع على أحكامهم ، مؤثرا حياد الفقيه واستقلاله وقد رجع اليه أبو جعفر مرة بعد أخرى فى أمور من الفقه • حتى كان مالم يكن منه بد • يوم بنى أبو جعفر — المنصور — مدينة المنصـــور — بغداد — وحمل اليها أعظم الأشـــخاص والأشياء ليصيرها عاصمة الدنيا •

ولم تكن لتصير كذلك الا أن يلى القضاء فيها أعلم رجل فى الدنيا •• فأشخصه أبو جعفر الى بغداد •

كانت قد انقضت بضعة عشر عاما من عمر الدولة العباسية كثر فيها القتل والظلم والبطش على يد السفاح وأبى جعفر • وهما لا يأذنان بمخالفة من أمير أووزير أو حاكم •

وأبو جعفر هو القائل عن الحجاج « ليت لى مثله » فى حين كان أبو حنيفة يعلم تلاميذه ما كتبه الى تلميذه نوح بن مريم

عند ما أخبره أنه ابتلى بالقضاء فى مرو : أنت كالغريق ٠ التمس لنفسك مخرجا ٠ وكان التلاميذ يتدارسون قوله من جعل قاضيا فهو كالغريق الى متى يسبح وان كان سابحا » قوله لهم: قد أسرجت لكم الفقه وألجمته ؛ فسألتكم بالله بقدر ما وهبكم من جلالة العلم لما صنتموه من ذل الاستثمار ٠ (السعى للوظائف) ٠

واعتذر أبو حنيفة لأبى جعفر ٠

وأصر امام المسلمين ٠ وألح أمير المؤمنين — واشارته أمر — بل حلف ليفعلن ٠ فحلف أبو حنيفة ألا يفعل ٠ وقال : «انى لا أصلح للقضاء » ٠

قال حاجب الرشيد : الا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟

قال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه منى٠

فأمر أبو جعفر به الى الحبس ٠ ثم أعاده يتهدده بتهمة عدم الولاء فقال له : أترغب عما نحن فيه ٠ ؟

فرد أبو حنيفة بما يفيد اعلان الولاء اذ ناداه من جديد بامارة المؤمنين ودعا له وقصر أسباب عذره على عدم الصلاحية:

قال أبو حنيفة : أصلح الله أمير المؤمنين ٠ لا أصلح للقضاء

قال أبو جعفر : كذبت ٠

فانطلق أبو حنيفة فى قياسه الرائع : قد حكم أمير المؤمنين أنى لا أصلح لقضاء لأنه ينسبنى الى الكذب ٠ فان كنت كاذبا

فلا أصلح • وان كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح •

وانطلق أبو حنيفة يقول : « اتق الله ولا ترع أمانتك الا من يخاف الله • والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب • ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات ، لاخترت أن أغرق • ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك • وكيف يحل لك أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كذاب •

وقيل داروا به فى الاسواق أياما كثيرة على أن يقبل القضاء فأبى • وردوه الى السجن •

وقيل ضرب مائة سوط أو مائة وعشر حتى سال الدم على عقبيه •

وقيل أمر له أبو جعفر بثلاثين ألف درهم فلما وضعت بين يديه قيل له : لو تصدقت بها •

قال : أيوجد عندهم الحلال !

هكذا حبس الشيخ الذى ظلت الحرية نصف قرن اسما هو مسماه — يصنعها بيده ويعلمها للعالم كله — ومن أجلها دخل السجن ليموت فيه • وهو العليم بمصير السجناء من خصماء أبى جعفر •

وبهذا الموقف الفريد خلد أبو حنيفة اسمه مثلما خلدته آراؤه

التى يذكرها المسلمون كلما تداولوا شأنا من شئون الدنيا أو الدين •

أحس أبو حنيفة بالموت فسجد وصعدت روحه وهو ساجد • فى رجب سنة ١٥٠ هجرية • وفى نفس العام ولد الامام الشافعى • وكأن السماء لم تشأ أن تحرم الدنيا ذاك الامام الا اذا أحيتها بهذا الامام •

الإمَامُ الشَّافِعِيُّ

عرف العالم السياسى محمد بن ادريس الشافعى عن طريق هارون الرشيد بعد مأساة دامية • وعرفه مجتمع الحجاز صبيا — جده ابن عم النبى — يتردد فى حلق الفقه بالمسجد الحرام بمكة • وعرفه يافعا يجلس فى الروضة الشريفة فى جوار قبر الرسول فى حلقة مالك بن أنس • بالمدينة • وعرفه فى الثلاثينات من عمره فى فناء زمزم يفجر للمسلمين ذلك الينبوع الذى لا يتوقف من العلوم (أصول الفقه) وعرفته بغداد عاصمة الامبراطورية الاسلامية وهو فى الاربعينات من عمره يجلى فقهاءها عن مقاعدهم اذ يجادل كالبحر الزاخر بنصوص الكتاب والسنة •

وعرفته مصر باعتباره المعنى بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام (عالم قريش يملأ طباق الارض علما) فأتاحت له المجلس الخالد فى المسجد الخالد — جامع عمرو — حيث كتب كتبه الخالدة على الدهر • فلم يبلغ مبلغها فى عالم التأليف كتاب • كما لم يبلغ مبلغ الشافعى فى الكتابة الفقهية امام سبقه أو جاء بعده •

ورفعت مصر على قبره القبة العالية فوق هضاب القاهرة كواسطة العقد بين الاهرام الثلاثة الكبرى • وبين معاهد

الاسلام ـ الثلاثة الاخرى ـ جامع عمرو والجامع الازهر وقلعة صلاح الدين • تحيط بها معاهد ومساجد لا تكاد تحصى • تقيمها الأمة التى تخرج قلبها من خلال القرون ، حاملا روحها الى الوجود ، فى شكل هرم أو مسجد أو قبة أو مئذنة : تتعالى بالدعاء للسماء تمسكا بالعقيدة وقربى للمعرفة •

والعرب الذين يتنادون اليوم بالوحدة العربية على أساس اللغة العربية ويعتبرون العروبة مركز النواة فى الاسلام ، يجدون الأساس العلمى لهذين المبدأين فى فكر الامام الشافعى سجله فى رسالته • « أصول الفقه » فجعلهما أصلين للفكر الاسلامى •

والمسلمون يعرفونه تعريف أحمد بن حنبل حيث يروى قوله عليه الصلاة والسلام (ان الله عز وجل يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها) ويضيف (وكان على رأس المائة الاولى عمر بن عبد العزيز وأرجو أن يكون على رأس المائة الثانية الشافعى رضى الله عنه) فالشافعى قرين لخامس الراشدين عند امام المسلمين الرابع • وهى درجة لم يبلغها أحد •

والمسلمون يرونه داعية للوحدة الفكرية • على أصول الفقه التى كشفها من القرآن والسنة ثم قدمها لهم •

والمعاصرون التواقون الى اقتحام عالم الفكر المعاصر والى

ممارسة الفكر الغربى الذى أبلغ الحضارة المعاصرة مبالغها ، منهم العالمون ان العلوم الاوربية الحديثة قامت على منهج التجربة والاستخلاص وهو المنهج المنسوب الى « فرنسيس بيكون » رائد العلوم الحديثة ومنهم العليمون بأن هذا المنهج قد نقله الى انجلترا من قبل ذلك بنحو قرنين (روجير بيكون) فيما نقل من العلوم الاسلامية الى لغات أوربة ــ وكانت تعج بالمترجمين من العربية الى تلك اللغات ــ وأن هذا المنهج نفسه منهج العلم الاسلامى • وهو منهج جابر بن حيان أول من استحق فى التاريخ لقب (كيمائى) كما تلقبه أوربا • عبر عنه بقوله « عملته بيدى وبعقلى وبحثته حتى صح وامتحنته فما كذب • » وتتابع عليه علماء المسلمين بادئين بحرية الفكر وحرية التجربة وحرية الاستخلاص •

وما هو الا منهج الحرية الاسلامية التى قررتها الشريعة لمراعاة الوقائع وتحقيق العلل وترتيب النتائج دون التزام بمقررات مفروضة تستعبد العقل البشرى كما صنعت تعاليم الكنيسة فى عصورها الاولى •

والتحقيق والتأمل والقياس والاستخلاص منهج الفقه الاسلامى الذى كشفه الشافعى نفسه والذى سمى من أجله (واضع علم الأصول) •

* * *

والمسلمون الذين يتصايحون ــ كلما كرثتهم كارثة ــ بالتزام الكتاب والسنة واتخاذهما طريقا للنجاة يجدون هذه الطريق

قد عبدها لهم ذلك الامام : الذى لقبته الامة ناصر السنة •

الذى تجتمع فى شخصه خصائص البطولة العربية • وفى فقهه مراكز القوة التى ينطلق بها المسلمون فيبدءون منتصرين: القرآن والسنة واللغة العربية والعروبة ووحدة الفكر •

وهو بالنسبة لعشاق البطـولات الشاعر المبـدع والزاهد الجسور • وفارس ــ الخيل ــ وبطل الرماية الذى يصيب من عشرة عشرة •

وهو فوق ذلك أبلغ البلغاء ، ليس مجرد امام فى اللغة ــ بل انه مصدر من مصادرها • تتردد فى معاجمها الاستشهادات بلغته ، وهو ما لم يتح من قبله أو بعده لامام •

وهو المثل الحى للاستقلال العلمى ، يصوب خصومه وهو يثنى عليهم • ويخطىء شيوخه وهو ينحنى لهم • ولما استوى اماما للمسلمين أقامت نظرياته فى تصحيح منهاج مدرسة العراق ، وتصويب مذهب أهل الحجاز مذهبا خالدا ، طريقته هى الطريقة المثلى فى الجدل العلمى الاسلامى •

وهو الامام الوحيد الذى صنع أصول مذهبه وفروعها وحده، وكتبها كلها بيده ، وأنفق الليالى الطـوال وساعات النهار فى السفر أو الجلوس للناس ــ على مدار العمر ، يكتب ويملى لينقل علمه للأمة •

ولما مات فى صدر شبابه العلمى كانت الاعوام العشرون التى قضاها فى التعليم كومضة النجم الذى خبا بمجرد أن تراءى. أو كما قال الامام أحمد بن حنبل (كان كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس . فانظـر هل لهذين من خلف أولهمـا من عـوض ؟) .

بين مكة والمدينة . واليمن والعراق

ولد محمد بن ادريس الشافعى بغزة ثغر فلسطين سنة ١٥٠ للهجرة . وكان أبوه قد خرج اليها من مكة فى حاجة أو بين جند الثغور . فلما مات الأب رجعت الأم بطفلها الى مكة بعد عامين من مولده مخافة أن يضيع حقه الضئيل فى بيت المال . وكان جديرا بالذود عنه فليس لهما سواه . وكان الخليفـة السفاح قد هم أن يحرم منه أهل الشافعى بعد أن أشركهم النبى فيه مع أبناء عمه الاخرين — بنى هاشم وبنى العباس — والشافعى يلتقى بالنبى فى الجد التاسع للشافعى والثالث للنبى — عبد مناف — وكان هذا الرزق لا يكفى الغلام ، فكان لا يجد أجر المعلم . فاستغل سرعة حفظه فى الحلول محل المعـلم ليكفه عن مطالبتـه بالأجر . حتى تعلم القرآن وجـوده وهو ابن سبع سنين . فصار وهو فى الثالثة عشرة اذا قرأ القرآن تساقط الناس بين يديه يبكون ، فاذا رأى ذلك أمسك .

واستقر بالمسجد الحرام لا يبرح حلق العلم فيه وبخاصة حلقتى سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجى .

وفى هذه الاثناء اتجه الى دراسة اللغة . منذ كانت الاحاطة بعلوم اللسان العربى الذى نزل به القرآن ، ووردت به الاحاديث والسنن ، هى الوسيلة الاولى للعلم والفقه . فقصد الى مضارب قبيلة هذيل بالبادية ، ليتعلم اللغة الفصحى التى لم تخالطها عجمة على قبيلة مشـــهورة بأنها من أفصـــح العرب . وتعتبر مجموعة شـــعر الهذليين أكبر مجموعة شعر من فصـــيح أدب العرب ، آلت الينا من الجاهلية وصدر الاسلام ، ولذا طبعت فى أوربة ثلاثة طبعات فى القرن الماضى وهذا القرن الى جـوار طبعاتها فى بلدان الامة العربية .

حفظ الشافعى عن الهذليين عشرة آلاف بيت من الشــعر باعرابها ومعانيها ، ونقل منها عنه العلمــاء الذين نقلت عنهم بلاغة العرب . ويقول الاصمعى : قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له محمد بن ادريس الشافعى » .

وكانت احاطة الشـــافعى بهذا الادب منحـــة منحته اياها السماء . فاتسم أسلوبه بالصـــفاء والجزالة ودقة التصوير وكمال التعبير . كلمة كلمة . لا تزيد المعنى ولا تزيد عنه . ولا تنقصـــه ولا تنقص دونه . شأن الصـــور فى الشـــعر الجـــاهلى .

وبهذا استطاع أن يرفع أسلوب التعبير الفقهى الى أعلى مستويات البلاغة ، وأن يتصدى لنصوص القرآن والســنة فيفهمها فهمه للغة التى كانت مستعملة وقت نزول القرآن مما لا يقدر عليه سواه . وأصبح محـــدث مكة ســـفيان بن عيينة

يسأله ــ وهو شاب ــ فى معانى الحديث • وسلم له شـيوخ الفقه ، فأذن له مسلم بن خالد الزنجى أن يجلس بالمسجد الحرام مجلس الافتاء •

لكن وراء مكة فقيه أعلم العلماء • الاحياء ، مالك بن أنس بالمدينة • والدراسة عليه استمرار لدراسات الشافعى فى الكتاب والسنة وتفسيرهما واتباعهما • فشد اليه رحله بعد أن حفظ كتابه « الموطأ » •

وكان مالك قد عبر ثلاثة أرباع قرن من حياته ، فى حين لم يكد الشافعى يعبر العشرين • وأعجبت مالكا شخصية الشافعى ولغته واخلاصه ، فأتم عليه قراءة الموطأ • لكنه بعد أن أتمه بقى فى رحاب المدينة الى جـوار شيخه والشـيوخ الاخرين حتى قاربت اقامته عشر سنين •

وارتبطت نفس الشافعى بمالك حتى لتراه بعد رحيل مالك عن الدنيا بعشرين عاما يكتب كتاب (خلاف مالك) ويتردد فى نشره عاما كاملا • حتى خار الله له فأقدم على نشره مؤثرا حق العلم •

والشافعى هو نفسه الذى يقـول فى ابن عباس : الاستاذ الاعلى لمكة ، (فابن عباس أفضل من أن يتوقى أن يقول له أحد حقا رآه) لكنها حسـاسية الحب ، أو فروسية الأدب ، تقفه ذلك الموقف • بل تجعله اذا ذكر مالكا فى معرض الرد عليه لا يسميه باسمه بل يقـول عنه • « قال صـاحبنا » •••

أو « بعض أصحابنا » أو « بعض أهل بلدنا » •

ولما صعدت روح مالك الى بارئها سافر مع والى اليمن لنعمل معه هناك واستعمله فى أعمال كثيرة أداها بنجاح •• فجلس الى أشياخ اليمن ينقل عليهم علمهم وعلم من تعلموا عليهم كالليث بن سعد امام مصر ، والاوزاعى امام الشام ، وبهذا اجتمع له علم الحجاز كله ومصر والشام • ولم يك ينقصه الا علوم المدرسة الاخرى فى العراق • ولسوف تتاح له بعد ذلك اذ يسوقها اليه موقف الهول فى حياته •

مع الرشيد

كان الرشيد بالرقة فى شمال العراق سنة ١٨٤ عندما كتب اليه قائد من قواده باليمن يخوفه من جماعة من العلويين (أتباع على بن أبى طالب رضى الله عنه) بينهم رجل يقال له محمد بن ادريس الشافعى يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه ، فان أردت أن تبقى بالحجاز عليك فاحملهم اليك •

فأمر الرشيد فحشر اليه عشرة منهم •

فلنقرأ رواية الشافعى للواقعة ، لنرى من آيات البلاغة العربية سطورا قليلة جدا تحوى حوادث ضخمة ومبادىء قانونية وقضائية كبيرة جدا • لم تتأكد فى أوربة الا فى القرن الاخير •• يقول (ثم وليت نجران •• وبها بنو الحارث بن عبد المدان وموالى ثقيف • وكان الوالى اذا أتاهم صانعوه فأردونى

على نحو ذلك فلم يجدوا ذلك عندى • وتظلم عندى ناس كثير فجمعتهم وقلت : اجمعوا لى سبعة يكون من عدلوه عدلا ومن جرحوه مجروحا • ففعلوا ــ وجلست وأمرت بتقديم الخصوم وأجلست السبعة حولى ، فاذا شهد الشاهد التفت اليهم فعملت بتعديلهم أو تجريحهم ؛ ولم أزل حتى أتيت على جميع الظلامات ، فلما انتهيت جعلت أحكم وأسجل فلما رأوا ذلك قالوا : « هذه الضياع ليست لنا وانما هى لمنصور بن المهدى » فقلت للكاتب : اكتب • وأقر المذكور أن الضيعة التى حكمت عليه فيها ليست له وانما هى لمنصور • ومنصور باق على حجته فيها • ان كانت ، قال : فاجتمعوا وخرجوا الى مكة • وعملوا فى أمرى حتى حملت الى العراق) •

وهذه الكلمات القليلة كالعدسات الصغيرة ــ ترينا وراءها أمورا كثيرة ــ رجلا فى ثلاثينياته لا يتيح لأصحاب المظالم أن يخالطوه أو يداهنوه • ويقرر نظريات عصرية وطرائق حديثة جدا الآن فى أمور من الفقه والقضاء •

مثل أخذ الخصوم بأقاريرهم واعتبار الاقرار حجة قاصرة على المقر واعتبار الاحكام نسبية بين الخصوم لا تتعدى الى الغير •

وحفظ الحق للخصم الغائب حتى يحضر فيدعى ويدافع •

وعدم تقرير حصانة قضائية لأخ الخليفة (منصور ابن المهدى) وعدم تعطيل القضاء باللدد فى الخصومة وسماع الدعاوى واحدة واحدة ، ثم اصدار الاحكام ثم تسجيلها •

وعلنية الجلسات •

واشراك المحلفين فى الجلسات مع الاحتفاظ للقاضى بحق اصدار الحكم • ثم سماع الدعاوى ، ثم اصدار الاحكام فيها واحدة واحدة ، ثم تسجيل الاحكام •

دفع الشافعى ثمن هذه العدالة التى لا تقهر ، والشـــجاعة التى لا تنازع والعلم العظيم ، فدس له الخصوم • فسيق الى الرشيد ــ متهما بالتآمر ضد •

فلنعد اليه حيث يقول (وضربت أعناقهم واحدا واحدا الى أن بقى حدث علوى من أهل المدينة ــ وأنا •• فأمر بضرب عنقه •• ثم قدمت ومحمد بن الحسن جالس معه فقال لى مثل ما قال للفتى ــ فقلت : « يا أمير المؤمنين أنا أدخلت فى القوم بغيا على ، وانما أنا رجل من بنى المطلب ولى مع ذلك حظ من العلم والفقـــه • والقاضى يعرف ذلك فى دفاعه) •• فقال :

« أنت محمد بن ادريس ثم عطف على محمد بن الحسن فقال : يا محمد ما يقول هذا هو كما يقوله ؟ قال محمد بلى • وله من العلم محل كبير • وليس الذى وقع عليه من شأنه • قال : فخذه حتى أنظر فى أمره • فأخذنى محمد • فكان ذلك سبب خلاصى لما أراد الله عز وجل » •

وكان محمد قد درس على مالك ثلاث سنوات فى المدينة •

فهو كان عليما بمكانة الشافعى فى حلقـــة مالك • سواء تقابلا أو لم يتقابلا فى ابان ذلك • فثمة قربى بين التـــلامذة على الاستاذ الواحد •

وانجلت القارعة عن تفرغ محمد ، صاحب أبى حنيفة له • ومناقشتهما فى فقه الحجاز وفقه العراق • ثم عودة الشافعى من العراق الى مكة بحمل بعير من كتب أبى حنيفة •

الرجـــــل

تزوج الشافعى فى صباه حميدة • حفيدة عثمان بن عفان ــ فهذا حفيد المطلب بن عبد مناف يقترن بحفيدة عبد شمس ابن عبد مناف ــ وهى تقترن بفتى ملء السمع والبصر ، طوال فارع العود ، ضامر كالجواد العـــربى ، ستتجشم فى رحلة الحياة معه ضروربا شتى من المشقة فى جـــوب الآفاق معه وفى العناية به وببنيه ، مع الاضاقة والفاقة • لكنها ستظفر بعبقرى مكة : الفارس الرامى الذى يملأ العين والقلب ويصيب من عشرة عشرة •

وسنرى كيف واتته الفروسية وخصائص النفس العربيـــة أكثر أخلاقه : من العلو على سفساف الامور • والتمكن والتثبت والاعتدال • والسيب والطول • وصدق القول • واجتهاد الرأى • وجهد النفس • والاحساس الدائم انه على سفر • أما الرمى فقد واتاه أكثر طريقته : البديهة المسعفة والمبادرة الهادفة والاتزان فى الانطلاق والتركيز على الغرض •

ولم يكن ضموره وليد الترحال فى الفلوات فحسب • وانما كان يرى البدانة معوقة عن العمل للدين والدنيا بما هو آنبل وأمثل من الرحلة للعلم ولقاء العقول ، ومقارعة الفكر مما لا يقدر عليه البطين البادن •

والشافعى هو القائل (ما أفلح سمين الا محمد بن الحسن وذلك لأن العاقل لابد أن يهتم لمعاده أو لمعاشه • وشدة الاهتمام مانعة من السمن) وهو القائل : (ما شبعت من سبعة عشرة سنة الا شبعة طرحتها لساعتها) •

ويرى الشافعى العبودية فى البخل ،، والحرية فى التقوى والكرم ، يقول : (الكرم والتقوى اذا اجتمعا فى شخص فهو حـــر) ••

وكانت حياته كلها كرامة وشجاعة • يعطى وهو لا يخـــاف عيلة • ويفلس ثلاث مرات فيبيع كثيره وقليله وحلى بنتــه وزوجته ولا يستدين • واذا أعطاه خليفة المسلمين مالا أنعم به على الاخرين من مخرجه • حتى اذا فجأته الوفاة أوصى الدولة أن تسدد ديونه •

ومن الكرامة يقول : أرفع الناس قدرا من لا يرى قدره • وأكثرهم فضلا من لا يرى فضله • ولما أوصى رجل بوصية الى أعقل الناس فسرها الشافعى بأنها لأزهد الناس • ويرى المعنى النبيل جليلا وان قل أثره والمال هينا مهما جل قدره ، ركب حمارا فمر بسوق الحدادين ــ بالفسطاط ــ وسقط سوطه

من يده فوثب غلام فأخذ السوط ومسحه فى كمه ثم ناوله اياه • فقال لغلامه : « ادفع بالدنانير التى معك اليه » ــ وكانت تسعة أو أكثر • ونصحه تلميذه أبو ثور أن يشترى بمال كان معه ضيعة له ولولده من بعده • فاشترى مضربا بمنى يكون لأصحابه اذ يحجون •

وبالتأصيل العميق والتصوير المشوق يجعل فقر العلماء هينا يفاخرون به فيسميه « فقر اختيار » • ويجعل فقر الجهـلاء مرضيا لهم يطيقونه ولا يضيقون به فيسميه (فقر اضطرار) •

يقول : « الوقار فى النزهة سخف » • ويقول : « الانبساط الى النـاس مجلبة لقرناء السوء • والانقباض عنهم مجلبـة للعداوة • فكن بين المنقبض والمنبسط » ومن الانبساط يعطى تلميذه الذى يقوم على حوائجه دراهم يشترى لحما فيشترى سمكا فيقول له : « يا ربيـع اليوم نأكل شهوتك وغـدا نأكل شهوتنا » • فاذا داعبه قال له : « يا طويل الرقاد » ويروى الأفاكيه مثل أن يقول : « كان لرجل ابن أبله فبعثه يوما يشترى حبلا طوله ثلاثون ذراعا فقال الابن لأبيه : « فى عرض كم » ؟ فقال الأب : « فى عرض مصيبتى فيك » •

فى جـوار زمـزم

ترك الشافعى قاعة المحاكمة ، وفيها الرشيد ، ليبدأ الصعود الى القمة فتكون قاعدة انطلاقه مكانة الرشيد • أعظم رجل فى

جاه الحياة الدنيا ، ومنزلة محمد بن الحسن أعظم رجل فى علوم الدين ليبلغ بعد سنين أعلى قمة علمية بلغها عالم .

واستقبلت مكة محمد بن ادريس — استقبال مغترب رجع اليها وهو حديث الدنيا . وهنالك عكف على كتب أبى حنيفة وراجع علم مالك . وجلس فى المسجد الحرام يفسر الكتاب والسنة تفسيراته البارعة ، وهنالك جلس اليه لأول مرة أحمد ابن حنبل .

هنالك كملت لديه نظريته فى أصول استنباط الأحكام من القرآن والسنة من نصهما ومن الاجتهاد على أساسهما.وأضاف الى ذلك دفاعه المبين عن السنة واعتبارها شارحة الكتاب مبينة للمجمل موضحة للمركز منه . وكان الذين ينازعون فى لزوم السنة يركبون موجة حرية الجدل التى صاحبت عصر المهدى والرشيد ويتذرعون بالقول بأن كتاب الله قد أكمل الدين . أما أحاديث الآحاد — التى يرويها واحد عن واحد — فرماها بالضعف منهاج مدرسة أبى حنيفة اذ لا يقبلون الا المتواتر الذى ترويه جماعة عن جماعة أو المشهور ومنهاج مالك ذاته الذى يجعل القوة لعمل أهل المدينة حتى اذا فرض الشافعى رأيه بالتزام السنة والأخذ بأحاديث الآحاد دانت له العقول وأصبحت الأحاديث الصحيحة المقبولة تعد بالآلاف لا بالمئات وبهذا كثرت النصوص واتسع الاعتماد على السنة لا على القياس على نصوص قليلة .

وسجل الشافعى منهاجه فى رسالة الى عبد الرحمن بن معدى

محدث ببغداد فسميت الرسالة • ومن أجلها سمى الشافعى واضع علم الأصول •

يرتب الشافعى على أن القرآن عربى فرض تعلم اللغة العربية على كل مسلم ليشهد الشهادتين ويتلو الكتاب وينطق بالذكر فيما افترض عليه من الواجبات فانما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها •

وهكذا يرفع اللغة العربية الى مستوى الدين فى الاسلام •

ثم يرفع العرب قال : (وأولى الناس بالفضل فى اللسان من لسانه لسان النبى ولا يجوز — والله أعلم — أن يكون أهل لسانه أتباعا لأهل لسان غير لسانه فى حرف واحد • بل كل لسان تبع لسانه • وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه • وقد بين الله فى غير آية من كتابه) •

وبين الشافعى منزلة السنة من القرآن فذكر أن الله فرض فى كتابه اتباعها بآيات كثيرة وأن الايمان بالاسلام هو الايمان بالله ورسوله وسنةرسوله وأن خبر الواحد — أحاديث الآحاد — كاف لاثبات الأحكام •

قال النبى عليه الصلاة والسلام • « نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه •• » فالرسول ندب الى سماع

مقالته عبدا • والعبد واحد • ولا يؤدى العبد عن الرسول الا ما تقوم به الحجة على من أدى اليه الكلام من حلال وحرام • وبين الشافعى أن من السنن ما نقلتها زوجات النبى — ليوضح كيف تقبل رواية المرأة • وبين كيف نقل رجل واحد الى الناس حكم القرآن بتغيير القبلة • ورجل واحد حكم بتحريم الخمر • وكيف نفذ المسلمون ذلك من فورهم دون انتظار لينقــل الخبر جماعة عن جمــاعة كما تستلزم مدرسة أبى حنيفة • وكيف أن الرســول بعث فى دهر واحد اثنى عشر رســولا — واحدا — الى اثنى عشر ملكا يدعوهم الى الاسلام • وكيف أنه لم يكن لأحد أن يقول للوالى أو المبعوث أو الخليفة أو القاضى أو أحد السرايا (أنت واحد وليس لك أن تأخذ منا مالم نسمع رسول الله يذكر أنه علينا) •

بل ان الرسل أرسلوا الى البشرية أحادا •

وينتقل الشافعى الى الشروط فيضع الشروط لقبول الأحاديث فى الرواة وفيما يرون وفيمن يستعمل القياس ويشترط ألايقيس (الا من جمع الآلة التى له القياس بها) • فهو يفترض عملية القياس استعمالا لآلة متحركة جديرة بالاحتياط • ويفرض على من يستعملها حدودا بالغة الدقة •

وهكذا انتصرت السنة كأصل مسلم به الى جوار القــرآن وانتصرت باتساع استعمالها وضبطه وبهذا النصر صحت نبوءة محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة عندما قال (ان تكلم أصحاب الحديث يوما فبلسان الشافعى) •

ويفتح الشافعى أبواب الاجتهاد للمسلمين فيقول (ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة الا وفى كتاب الله دليل عليها) (وكل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم أو على الحق فيـــه دلالة موجودة) وعلى المجتهــد طلب الحكم بالاجتهاد واســتعمال الدلائل • ورأى أن الاجتهاد القياس وضبط آلة القياس ومن يستعملها • وسدد اتجاه العراقيين فيه • وناقش اتجاه مالك فى تفضيل علم أهل المدينة فجعل القوة للحق • وبهذا كان قواما بين منهجى العراق وأهل المدينة •

فالنصوص تقتصر على أسس الأحكام عموما مع الاتجاه الى التحديد بالتفصيل القليل فى العبادات وما يلحق بها من المواريث والزواج والطلاق وما اليها وفيما عدا ذلك من معاملات الناس اتجهت النصوص اتجاه الايجاز المفتوح نحو المستقبل • وكان من اعجازها أن تتفق — على وجازتهــا — مع مصالح الجنس البشرى كلها كما يقررها الاسلام • وكان من عظمة الفقه كفاية أصوله فى تحقيق هذه المصالح فى كل زمان ومكان •

أمــام مصر

دخل الشافعى بغداد سنة ١٩٥ وهى تضطرب بأفكار وناس من كل الأجناس • وفى كل فرقة فرق • وليس فريق أهل السنة بأقل تنازعا وفرقة • ففيه المحدثون والفقهاء مدارس أهمهــا مدرسة أبى حنيفة ومدرسة المحدثين الذين لا يجازفون بالاجتهاد الا اضطرارا • لكن خلافات بغداد لم تأخذه على غرة وقد طالما درسها • فهاجمها بقوة •

وكان فى المسجد نحو الأربعين أو الخمسين حلقـــة • فراح يجلس فيها يقول : قال الله وقال الرسول حتى ما بقى فى المسجد حلقة غيره •

وسمع الناس أبلغ لسان عربى فكان يجيئه من يطلب الشعر ومن يطلب اللغة ومن يطلب أن يسمع النطق العربى الأصيل بل كان ثمة من يجيئه لمجرد أن يراه !

وكان خطيبا ، أى خطيب :

بقى الشافعى فى بغداد عامين حتى سنة ١٩٧ كتب فيها كتبة ثم عاد الى مكة ليقيم أشهرا ثم رجع الى بغداد سنة ١٩٨ ليرحل مع الوالى الجديد الى مصر فيبلغها سنة ١٩٨ وكأنما كان يدرك أن مصر ستضمن لفقهه الخلود •

* * *

ومصر تتميز بالقدم والاستمرار وتخليد الحضارة ومدارسها• لقد ظلت مدرسة الاسكندرية ألف عام من سنة ٣٣٢ قبل الميلاد حتى دخل العرب مصر وهى مصدر العلم الوحيد فى العالم وفى القرون الخمسة الأولى من هذه الحقبة كان منها جميع علمـــاء الفلك والرياضيين العالميين • وفى القرون الخمسة التالية تسربت فلسفتها الى المسيحية فأثرت فيها واتصلت بديانات آسيا •

ومن قبل هذه الحقبة بأكثر من ثلاثة عشر قرنا كتب المصريون أقدم سجل رياضى فى التاريخ سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد وانتقلت

آثار حضارتهم الى فلسفات أوربة وعماراتها وزراعاتها وتجاراتها حتى اذا دخلت المسيحية أوربة كانت عبادة ايزيس عبادة جنوب أوربـــا •

وكان بمصر تشريعات قال عنها ديودور الصقلى منذ عهـــد الرومان (أنها قديمة من آلاف السنين أعجبت العالم فعلاوماتزال جديرة بالاعجاب ••) بل تدل الكشوف الحديثة على أن فهم القوانـــين الرومانية يستلزم الالمام بأصولها المصريـــة • حتى القوانين الطبيعية الواردة فى الألواح الرومانية التى تعتبر أقدم تقنين فى عالم الغرب كانت تقليدا لقوانين بوكوريس فى مصر •

❊ ❊ ❊

ومصر كما خلقها الله ، أطيب ما يألفه العرب • نخلة باسقة سمراء • تضرب جـــذورها فى خط الاستواء • وتهز فروعهـــا الخضراء فى الدلتا • ومن هنالك تنشر جناحيها لتربط العـــرب بأصولهم وفروعهم فى قارتين • وفى كثبانها الصفراء فى الصحراء وشطئانها الخضراء فى جنبات الوادى ، مغدى العرب ومراحهم• ولما ساح العرب فى الأرض امتلأ الوادى بأبناء الفاتحين من أزواج مصريين أو بأبناء الذين أسلموا •

ومن أسلم تعـــرب :

وفـــد اليها مائة وأربعون صحابيا ونيف يسميهم المؤرخون (المحدثين المصريين) منهم أبو ذر الغفارى والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمرو • وفيهـــا بزغ نجوم

كبراء ، كالليث بن سعد صنومالك ، وابن وهب وابن القـاسم وعبد الله بن عبد الحكم من تلاميذ مالك • وعلى عبد الله •• نزل الشافعى منذ كان جدوده موالى عثمان بن عفان وعثمان جـد حميدة زوج الشافعى •

وكان قد مضى مائة وسبعون عاما ونيف على دخول العـرب الى مصر وانشاء جامعها العتيق ـ جامع عمرو ـ فقامت فيـه حلق الفقه والسيرة • فانطلق الشافعى يلقى دروسه فيـه • فراع الأسماع والأبصار حتى ليوصى عبد الله بن الحكم امام المالكية ابنه محمدا بالانقطاع الى الشافعى • وأهرع الناس فى البلد المضياف الى « زاوية الخشابية » التى عرفت به فى الجامع قالوا قدم رجل من قريش فجئناه وهو يصلى فما رأينا أحسن صلاة منه ولا أحسن وجها فاذا تكلم ما رأينا أحسن كلاما منه فافتتنا به • وقالوا : اذا أخذ فى التفسير كأنه شاهد التنزيل • واذا تكلم كأن صوته صنج أو جرس من حسن صوته •

وكان يعلم الأدب العظيم قال تلميذه المزنى فـلان كذاب • فقال الامام للتلميذ اكس ألفاظك أحسنها • لا تقل كذاب • قل ليس بشىء •

وكان يملك التعبيرات البارعة • اذا ضعف حديث الرياحى قال عنه : حديثه رياح • أو ضعف حديث حرام بن عثمـان قال عنه حديث حـرام • ومن ذلك يتردد فى كتبه (خالفنـا بعض الناس) دون أن يسميهم حتى لا يؤذى النقد أسماءهم •

يستفتح الدروس وجه النهار بالقرآن ويثنى بالحديث ومن بعد ذلك مناقشة مفتوحة للناس جميعا فى القرآن والسنة أما الدرس الرابع ففى علوم اللغة ، والسيرة • وبهذا تتكامل فى جامع عمرو دورة تدريس « منهج كامل » فى يوم واحد فى حين تتكامل للأستاذ الجامعى فى العصور الحديثة على سنوات وعلى يد أساتذة كثيرين •

فاذا خلا الامام فى بيته هدر كالسيل فى أيام العرب ، أو تحدث عن عجائب حله وترحاله بالمدينة واليمن ومصر وأحاديث البطولات عن فقهاء الحجاز كابن أبى ذئب مع أبى جعفر المنصور • وكابن عباس مع عمرو بن العاص •

* * *

وقد ينتهى من الصلاة فيلقى اليه طنفسة فيجلس عليها الى جوار الأساطين فى الجامع وينحنى لوجهه ثم يأخذ فى الكتابة • وفى بعض الأوقات يملى • وفى بعض الأوقات يقرأ تلميذه البويطى ويستمع الحاضرون •• أو ينشط الأذهان بالنكات الأدبية أو بالجوايز السنية • وربما ألقى المسألة على تلميذه الحميدى وابنه أبى عثمان محمد بن الشافعى وقال : أيكما أصاب فله دينار •

فاذا أوى الى داره قسم الليل ثلاثة أثلاث ــ ثلثا يكتب فيه وثلثا ينام فيه وثلثا يصلى فيه • وكانت له جارية يوقظها كلما عن له أن يدون بابا فى العلم • قالت : « ربما قدمنا فى ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أكثر أو أقل بين يدى الشافعى » •

وكان مسقاما شديد العلة بالبواسير من طول ما سار وسافر وركب وجلس حتى ان صدره أصبح ضيقا وكان علاجه فى عدم الجلوس والسهر والاجهاد لكنه آثر أن يجلس وأن يكتب وأن يملى ليضع مذهبــه فى صورة نهائية ويفتح أبواب الاجتهـاد ويمنع الناس من تعطيل العقل بالتقليد ـ ويقول « اذا قاس من له القياس فاختلفوا وسع كلا أن يقول بمبلغ اجتهاده ولم يسعه اتباع غيره فيما أدى اليه اجتهاده بخلافه » .

وأصبح النهى عن التقليد معلما من معالم مذهبه يقول تلميذه المزنى ، وهو يقدم مختصره الأشهر : اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن ادريس الشافعى ومن معنى قوله ، رحمه الله ، لأقربه على من أراده ، مـع اعـلامية نهيه عن تقليده وتقليد غـيره » .

ورأت مصر ماتراه اليوم ، اذ نقرأ فى كتبه طريقة جديدة فى الكتابة من استعراض الرأى ونقيضه ، لتتم الحجة أو ادحاضها بالدليل ونقيضه من أكثر من وجه . وكثيرا ما كان يقول لمجادله: (تقلد أنت قولى وأتقلد قولك) ثم يناظره فيقطعه ، فاذا كان يكتب أو يملى ، افترض وجود خصم ينـافح عن رأى عكسى فيناظره . ومن أجل ذلك يحس القارىء له وكأنه بين جماعة من المتجادلين يتناظرون .

وعلمت مصر الشافعى أشياء جديدة . فغير فيها بعض آرائه وكان أهم شىء صنعه بها تعليم المدرسة التى خلدت آراءه فى

صورتها النهائية ، وتسجيلها فى كتب آل أكثرها الينا فى كتاب الأم ، قيل أنه ألف (١١٣) كتابا وقيل (١٤٢) كتابا فى التفسير والفقه والأدب • وكتاب الأم يقع فى سبعة مجلدات ضخمة يحتاج وضعها الى جهد مدرسة كاملة من الأئمة من مستوى الشافعى لو وجد أحد فى مستواه •

ويزيد قدره أن يؤلف هذا الكتاب ، ويتقرر هذا الفقه فى مدة قصيرة جدا ، من حياة قصيرة نسبيا ، اذا قيست بحياة غيره •

على أن أثر الشافعى فى مصر ذاتها قد جعل جامع عمرو أملا للأمة • ترتفع فيه أعلام الشريعة • على يد تلاميذ أفذاذ منهم كتاب المذهب كالبويطى والمزنى والربيع المنسوب اليه نقل كتاب الأم • ثم حمل الأزهر الراية حتى جاءت دولة الأيوبيين ، وكان مؤسسها صلاح الدين يعتنق مذهب الشافعى فأنشأت المدارس المستقلة عن المسجد لتدريس الفقه والسنة وأولهـا مدرستان للشافعى بمصر ودمشق أقامهما صلاح الدين الأيوبى كما أقام قلعتـــه •

ومن هنا يقترن اسم الشافعى بصلاح الدين وتقترن قبـة الشافعى بقلعة صلاح الدين فى المسجد الفكرى والمجد العسكرى لمـصر •

وتتابع انشاء المدارس مستقلة عن الجوامع وظهر الطـراز المعمارى للمدارس المستقلة ، حتى اليوم ، فالشافعى يقترن فى

مصر بالعلم عموما وفقهه خصوصا وبانشاء المـــدارس للتعليم خاصـــــة .

ألح الداء على الامام فى الأيام الأخيرة ، ودنا الأجل حتى اذا كانت العشاء الأخيرة من ليلة الجمعة يوم ٢٩ من رجب ســـنة ٢٠٤ أسلم امام المسلمين وجهه لله ودفن بمقبرة القرشيين بـــين قبور بنى عبد الحكم ثم أقيمت له القبة المشهورة التى تتعالى الآن فى سماء الفسطاط فى مصر القاهرة .

الإمام مالك بن أنس

مالك امام دار الهجرة ، التى نزل بها القرآن ، وفيها أكمل الله الدين ، وفيها طبق النبى الاسلام كما أنزله الله ، وطبقه الخلفاء الراشدون عشرات السنين،فليس كمثلها مكان — فى الوجود — شهد الكمال الانسانى أكبر مدة أتيحت للبشر •

« المدينة » التى عاش فيها الرسول عشر سنين أو نحوها ، وتعاقب عليهـــا الخلفاء الراشدون ، يجتهدون اجتهـــاداتهم الانسانية ، لاتباع سنة صاحبهم صلى الله عليه وسلم ، وبقى البعض من الصحابة فيها حتى خواتيم المائة الأولى للهجرة ، مع التابعين وتابعيهم ، فيهم القرون الثلاثة الأولى — الأجيال الثلاثة الأولى — من المسلمين ، وفيهم قول الرسول « خـــير القرون قرنى — جيلى — ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ومالك بن أنس واحد من تابعى التابعين •

المدينة التى صنعت للاسلام انتشاره ، فى كل جزيرة العرب فى عهد الرسول • وانتصاره فى حروب الردة ، وانتقال جيوشه الى خارج الجزيرة العربية فى عهد الصديق أبى بكر ، والتدمير الساحق فى بضع سنين من خلافة عمر للامبراطوريتين اللتين كانتا تحكمان العالم ، لتكون كلمة الله هى العليا ، ثم ميل الكثيرين الى الدنيا فى عهد عثمان ، ومنهم قليل من الأمويين ، ثم الانقسامات القاصمة فى عهد على مع الأمويين ، ومع الخوارج •

المدينة التى شهدت فى عهد أبى بكر الانتقال من عصر الرسالة الى دنيا الناس وانحرافاتهم ، وشهدت فى عهـد عمـر عصر الرسالة كمـا يجب أن تطبق فى الدنيا ، وفيهـا اجتهد أبو بكر للمسلمين ليرفع راية الاسلام وقال : « انما انا متبع ولست بمبتـدع » .

فلما خلفه عمر كان عصره عصر التطور ، فصار المجتهد الأكبر مع الاتباع الكامل . ومالك بن أنس يمثل عنصر الاستمرار لفقه أبى بكر وعمر ، فهو امام الاتباع الكامل والاجتهاد عند الحاجة

* * *

« المدينـة » التى شهدت بدايات الانقسام الذى لم يرأب صدعه للآن ـ منذ قتل عثمان حتى دفنه الذين دفنوه بليل فزعا من قاتليه ـ الى أن عهد لهذه المهمة جماعة من الشجعان فيهم مالك بن أبى عامر الأصبحى : جد مالك بن أنس .

المدينة التى شهدت انتقال العاصمة منها الى دمشق فى عهد بنى أمية ثم الى بغداد فى عهد بنى العباس ، ومغاضبة الخلفاء فى الدولتين لأهل البيت ، وأبناء الصحابة ، حتى ولى عليها عمر ابن عبد العزيز بضع سنين ، فرأت من عمر الثانى ـ حفيـد عمر بن الخطاب ـ عدل عمر الأول ، حتى اذا ولى الخلافة على رأس المائة الأولى ، كانت المدينة قرة عينيـه ، وكانت سنن الرسول وتطبيقهـا فى المسلمين وتعليمها للاقطار وتدوينهـا فى الأسفار مشغلته ، فأعادت خلافته ـ التى دامت ثلاثين شهرا

فحسب ـ المسلمين الى الصلاح فى دينهم والفلاح فى دنياهم وحققت تكامل النظرية الاسلامية فى الدين والاجتماع والاقتصاد اذ أنفذت الحدود ، ، وجمعت الزكاة ،وأحسن توزيع أموال بيت المال ، وبدأ خليفة المسلمين محاسبة المسلمين وولاتهم بمحاسبة نفسه وظهر الغنى على كل الناس • فكان يرسل الصدقات الى الفقراء فى المدينة ، وأهلها فى الجملة فقراء ، فصار لايجد فقيرا وصار عامله على تونس لا يجد فيها فقيرا • فكلفه بأن يشترى بقيمتها رقيقا ويعتقه •

وكان جد مالك وعمه يدخلان على عمر ، ومالك يروى عن عمه وعن جده •

المدينة التى قابلت دولة بنى العباس بالثورات دفاعا عن أهل البيت وكان فيها مالك أمل الدولة للسلام والاستقرار ورضا الناس عن الخليفة واحجامهم عن الثورة •

* * *

فى هذه المدينة ، القلعة التى حفظت سنة رسول الله ، أو المنارة التى ينبعث منها النور ، عبر القرون الى كل مكان ، عاش مالك بن أنس نيفا وثمانين عاما يحرص القلعة ويتعهد المنارة ، ويبعث أضواءها الى أرجاء العالم الاسلامى جميعا ، وبهذا علم مالك المذاهب كلها والأئمة أنفسهم ، الامام الشافعى تلميذه الأشهر • والامام أحمد بن حنبل تلميذ الشافعى ، لكنه تلميذ

غير مباشر لمالك فى مدرسة الاتباع الكامل • واذا لم يؤثر مالك فى أبى حنيفة ذاته فقد ترك فى مدرسته أعظم الأثر ، فكاتب المذهب الحنفى محمد بن الحسن هو تلميذ مالك ، وله احـدى الروايات الشهيرة فى الفقه المقارن لكتاب مالك الشهير بالموطأ • أما صاحب أبى حنيفة الثانى وهو أبو يوسف فقد قرأ الموطأ ثم مال بمدرسة أبى حنيفة الى مقاربة مدرسة المحدثين •

انتشر علم مالك فى القارات الثلاث المعروفة فى ذلك الزمان فى حياته فصار مذهب الأندلس بأوربا ثم مذهب افريقية ومذهب المدينة بالحجاز • وما كان ليبلغ شـأوه الرفيع الا بخصائص الحنيفية السمحة ، التى تتجلى فى عمل أهل المدينة وعلمهم ، والطابع العلمى الذى يتبع العرف ، ويتغيا المصلحة الشرعية ، ويعمل لبلوغها ، كما عمل لبلوغها الصحابة والتابعون وتابعوهم •

* * *

وهو الى ذلك مسماح بالفعل وبالفكر ، كثير العطاء مما يملك ، كبير التيسير فى شئون الحياة ، بل هو يضرب للناس المثل فى تعاطى محاسنها : شرابه فى الصيف السكر ، وفى الشتاء العسل ، ويؤثر الموز لأنه فاكهة دائمة كفاكهة الجنة ، يتمنى — مرة — أن يكون كساؤه قرمزيا ، فيجيئه فى الغـداة سبعة أثواب • وقميصه عدنى رقيق ، وطيلسانه أشبه بالملوك ، يقول (التواضع فى التقى ، لا فى اللباس) وهو يتذوق الفن الرفيـع فيترنم بالشعر ويساير عرف المدينة من استحسان غناء الرجولة وتقبيح الغناء الذى يصنعه الفساق •

ولما عاتبه واحد من المتشددين ، اذ يلبس الدقاق ويأكل الرقاق كتب اليه يقول (.. فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » وانى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه) .

* * *

المدينة دار السنة :

ان فكر مالك وفقهه قد صنعتهما المدينة المنورة بفكرهاوفقهها وموقعها بين الاسلام ، وكان من فضل الله على الامام أن ظهرت آثارها فيه أكثر مما ظهرت فى جيله من تابعى التابعين . فالامام مالك يتصدر الجيل الأخير الذى ورد ذكره لجلال أثر المدينة فى مالك وأثره فى الأمة .

ولقد تميز تأثير المدينة المنورة فى مالك باتصاله الفكرى بالصديق أبى بكر والفاروق عمر رضى الله عنهما .

أما صلته بالصديق فذات شعب : تبدأ بنسب الولاء بين جدوده بنى أصبح وبين بنى تيم رهط أبى بكر ، وبالكثيرين من الذين تعلم عليهم من بنى تيم أنفسهم ، أو من أوليائهم .

وتتجلى فى اعتناق منهاجهم الذى توارثوه وهو الاتباع الكامل للسنة ورفض الابتداع فى كل صوره .

وأما صـــلة مالك بالفاروق فليست أقل وثاقة ، فهى تبــدأ بالسنوات الاولى من حياة مالك ، يملأ ســـمعه دوى الدنيـــا الصالحة التى هيأها للمسلمين عمر بن عبد العزيز على رأس القرن الاول للهجرة ، وتظهر فى متابعته تراث فقهاء المدينـــة ــ السبعة ــ وفيهم الكثير جدا من عمر بن الخطاب واجتهاداته.

كانت بصيرة الصديق أبى بكر ، ترى الحق فى أكثر المواقف ، دون بحث طويل عنه لسبقه فى الاسلام ــ فهو أول المسلمين من الرجال ــ ولطول صحبته للرسول ، ومشاركته فى مواقف الاسلام العصيبة ، صار تصديقه للرسول اتباعا فاهما ملهما ، وتوفيقـــه لما يلزم للدين من جـــوهر طبيعتـــــه وان ناقش أو استشار . وانما كان اتباعه تمحيصا بلغ فيه درجة اليقين بالحقيقة فيما كان وما قد يكون . فاجتهاداته فى الحقيقة كانت دفقا من النور تلقاها من الرسول ، ثم ألقاها للناس فى مناسباتها تحمل آراء خاصة أو مبتكرة .

ولما قيضته السماء للمسلمين فى مواقف ردة العـــرب عن الاسلام كانت مواقفه كمواقف النبى ، فهو خليفة النبى فى تفكيره وفى صـــنيعه ، فى أعظم موقف واجهـــه المســـلمون أو سيواجهونه بعد موت الرسول . وهو القائل لفاطمة الزهراء ــ رضى الله عنهما ــ « انى والله ما أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه الا صنعته » ..

وهو أعظم من رفع لواء الاتباع بفعله وقوله للناس ..

« انما أنا متبع ولست بمبتدع فان استقمت فتابعونى وأن زغت فقومونى » .

واتبع عمر سـنة صاحبيه وآثارهما على ما يعبر ابن قتيبة كما يتبع الفصيل (ولد الناقة) أثر أمه ثم اختار الله له ما عنـده .

ومن مأثور قول عمر عن الرسـول وأبى بكر : هما المرءان اقتدى بهما .

كانت خلافة أبى بكر قصيرة كلها حرب واعداد للحـرب وانتصارات لا تقوم فيها مشـكلات مجتمعات ومعـاملات ، أما خلافة عمر فكانت طويلة وفيها الفتوح فى دولتى العـالم « الفرس والروم » . فجاءت اليه مشاكل شتى تلتمس أحكام الاسلام فى المعايش والارزاق والادارة والسياسة الخارجية والداخلية . سـواء فى الاقتصـاد أو الزواج أو الطـلاق أو النفقات أو الميراث أو القضاء أو الحرية الشخصية . وكان يعدل عن فقهه و لايعدل عن قضائه .

وذلل الصعاب له اعتماده على المشورة . فأبقى مشيخة الصحابة الى جواره فشاركته الامة حكمه ، وكثرت اجتهاداته ، وأثرت اتجاهاته ، فى مذاهب الفقه فتراءى للمسلمين مع صاحبيه ــ النبى عليه الصلاة والسلام وأبى بكر رضى الله عنهما ، متبعا لهمـا ومجتهدا على آثارهما .

وكانت ومضات فكره مصابيح فى الاتباع والاجتهاد فى خلافة أبى بكر ذاته . ثم فى خلافة عمر مثل خلافاتهمـــا فى مواقف أبى بكر من ردة العرب وانفاذ أسامـــة بن زيد قائد الجيش الذى أعده الرسول ، وابقاء خالد بن الوليد سيفا مسلولا يحقق النصر للاسلام فى العراق والشام ، بل فى تعيين عمر بن الخطاب ذاته فى الخلافة فلقد كانت لعمر فى المسائل الثلاث الأولى خلافات .

أما الخلافة فكان زاهدا فيها فأعلمه أبو بكر انهما بحاجة اليه اذا لم يكن له بها حاجة . أما خلافاتهما فى الفقه والمعاملات فلا يعرف فيها لأبى بكر مخالفة نص أبدا أو مأخذ ضعيف أبدا . وانما كان ذلك تحقيقا لكونه خليفة النبى أما عمر فخليفـــة الخليفـــة .

ولقد كلف عمر من يطلب بعد مماته الى عائشة رضى الله عنها الاذن فى أن يدفن فى قبر صاحبيه — زوجها وأبيها — فآثرته بالمكان الجليل على نفســـــها ليجتمعوا هناك — فى البقعـــة المباركة من المدينـــة المنورة — حقبة واحـــدة تشـــتمل على « النظرية والتطبيق » فى مراحل ثلاث متكاملة هى عصر نزول الرسالة الى الدنيا . وعصر ما بين الرســـالة والدنيا (عصر أبى بكر) وعصر ما يجب أن تكون عليه الدنيـــا كما نزلت منها الرسالة (عصر عمر) .

كانت العصور الثلاثة عقدا من أضواء السماء تنتظم المدينة المنورة حياته أو سنواته التى صيرتها عاصـــمة الاســـلام .

واقترنت دارهـا بالأشخاص والأشـياء والآراء ـ اقتران محتـويات الوعاء بالوعاء . فأمست « المدينـة » كالنص ومضمونه ، فكرة لا مجرد بلدة . ونظاما لا مجرد مكان . يطلق عليه الفقهاء والأئمة . « المدينة المنورة » التى اليهـا كانت الهجرة . ودار السنة . ودار الهجرة .

ورفع مالك بن أنس هذا اللواء ليجعله شـعارا فى الفقـه ويضمنه أصوله وليعلن للأمة ويعلم الأئمة : الاتباع كما اتبع الخليفتان . والاجتهاد كما كانا يجتهدان . مع الحفـاظ على السـنة .

ولمـا انتقلت عاصمة الدولة من المدينة الى دمشق بعـد أن صارت الدولة للامويين أو العباسيين ، ظلت المدينة عاصـمة العواصم يحج المسلمون اليها من كل فج عميق ويزوورونهـا ، اذ يحجون وينهلون من مصادر فكرها كل منهل .

وحمل مالك رايات هذا الفكر فى مواجهة الدولتين الجـديدتين والتمست الدولتان فقه المدينة ، وان خالفتا أفكارها فى السياسة أو اضعفتا نفوذها لتصفو لهما شئون الحكم ، أو سامها بعض الخلفاء التضييق فى الرزق والحجر على حريات بنيها وبخاصـة أهل البيت فهؤلاء هم المؤهلون لمنافسة الدولتين الجـديدتين فى الخلافة .

ومع أن المدينة وزعماءهـا كانوا يغاضـبون بنى أميـة فى

السياسية الا أن فقه أئمتها كان فقه (الحياد) وعدم استعمال القوة فى مواجهة السلطان وفى طليعة هؤلاء عبد الله بن عمر •

وعبد الله واحد من الصحابة الذين تجنبوا الفتنــة فلم ينضم لمعسكر على أو معاوية رضى الله عنهم أجمعين ، بل وقف بعيداً يرأس مدرسة المدينة كلها فى الاتباع • وعليه تعلم فقهاء المدينة السبعة • وصدق مالك فى الحياد بين المتنازعين فلم يجـر فى تيار السلطة مذ كانت السلطة لبنى أمية — وكان هواه مـع دولتهم لأكثر من سبب — وهو فيما يتحدث عن عمر بن عبد العزيز كان يتحدث عن خامس الخلفاء الراشدين — وهؤلاء ليس منهم بنى أمية ، بل هو يواجه حفيد عمر بن الخطاب لاحفيد عبد الملك ابن مروان ويجعله درسا فى فقه الدنيـا والدين لا رجلا من الأمويين • وعمر كان وجه اصـلاح الدنيـا بتطبيـق أحكام الدين •

ولمـا آلت الدولة لبنى العباس ظل يرفع فى وجوههم أعلام السنة وينبههم على مكانة المدينة • بل راح يعلن أحكام السنة ضد البيعة المكرهة — وكثير من البيعة لهم كان كذلك — أو حكم النبى عليه الصلاة والسلام فى مكانة معاوية — رأس دولة بنى أمية — من الدين فيتحدث بحديث معاوية والسفرجلات على رغم نهى الرشيد له (١) •

---

(١) يروى مالك : حدثنا نافـع عن ابن عمر قـال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى اليه السفرجل — فاعطى أصحابه واحدة واحـدة واعطى معاويـة رضى الله عنه ثلاث سفرجلات . وقال القنى بهن فى الجنة •

تلميذ المدينة

ولد مالك سنة ٩٣ للهجرة بوادى المروة على مبعدة من المدينة لأب فقير يعول أهله من صناعة النبال . وكان جده مالك بن أبى عامر تابعيا يروى عن عمر وطلحة وعائشة وأبى هريرة وعثمان رضى الله عنهم . ويروى الطبرى أنه كان يكتب المصاحف أيام عثمان .

وكان أبو سهيل عم مالك واحدا من اخوة أربعة يروون العلم عن أبيهم ومالك بن أنس يروى عن أبى سهيل .

والمشهور أن مالك بن أبى عامر جاء من اليمن يشكو واليها . وقيل ان أباه عامرا هو الذى قدم ولقى عبد الرحمن ابن عثمان بن عبيد الله التيمى — وهو ابن أخى طلحة أحد العشرة المبشرين بالجنة والستة الذين رشحهم عمر للخلافة وهو واحد من زعماء بنى تيم — وعقد أبو عامر مع عبد الرحمن حلف ولاء ولا خلاف فى هذا الولاء — فهو الذى يعبر عنه أبو سهيل حيث يقول (نحن قوم من ذى أصبح . قدم جدنا المدينة فتزوج فى التيميين . فكان منهم ونسب اليهم) أما ذو أصبح فيقال انهم كانوا فى الجاهلية من ملوك اليمن .

وانتقل مالك الى الوادى المبارك فى « العقيق » على مشارف المدينة يعيش من عمله مع أخيه النضر فى تجارة البز ثم ترك التجارة الى العلم وان ظل يرتزق من مرابحة يسيرة فى مبلغ من المال لا يزيد عن أربعمائة دينار .

ووجهته أمه الى مدرسة بنى تيم فدفعته الى اثنين من مواليهم فحفظ القرآن على قارىء المدينة الاشهر نافع بن عبد الرحمن ابن أبى نعيم مولى بنى تيم . ودرس الفقه على ربيعة بن أبى عبد الرحمن الملقب بربيعة الرأى لكثرة ابدائه الرأى وهـو مولى آخر لبنى تيم .

أما شيوخ مالك من بنى تيم أنفسهم فأولهم محمد بن المنكدر لا يكاد أحد يسـأله عن حديث الا بكى . يقول مالك « كنت اذا وجدت من نفسى قسوة آتى ابن المنكدر فأنظر اليه فأبغض نفسى أياما » .

أما الامام جعفر الصادق أستاذه الآخر فهو أوثق صـلة بأبى بكر وهو القائل (ولدنى أبو بكر مرتين) بامه . وأمها . يقول مالك (كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فاذا ذكر عنده جده ــ النبى عليه الصلاة والسلام ــ اخضر واصفر . ولقد اختلفت اليه زمانا وما رأيته يحدث عن رسول الله الا على الطهارة . ولا يتكلم فيمـا لا يعنيـه . وكان من العلماء والعباد والزهاد الذين يخشون الله . وما أتيته قط الا ويخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتى) .

وعلى محمد بن المنكدر والامام جعفر تعلم مالك الخشـــوع والورع وتأليف القلوب وتشجيع طلاب المعرفة • كما علمـــه الامام جعفر فقه الحياد بين المتصارعين ومهادنة السلطان والبعد عن الفتنة والولاء للسلطة وعدم الخروج عليها •

إلى جوار هؤلاء الشيوخ شيوخ آخرون سابقون من بنى تيم أنفسهم علموا المسلمين كافة وعلماء المدينة خاصة كالقاسم ابن محمد بن أبى بكر — أعيمش بنى تيم كما يسميه عمر بن عبد العزيز — أو أمهاتهم منهم • كابنى الزبير : عبد الله وعروة• أمهما اسماء بنت أبى بكر •

وعلى رأس هؤلاء أم المؤمنين عائشة ، باب العلم الواســع فى المدينة • وأكثر علمها عند القاسم وعند عمرة بنت عبد الرحمن خالة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم • وعمر بن عبد العزيز يقول ان أكثر علم « عائشة » عند عمرة والقاسم • وعن محمد وعبد الله ابنى أبى بـــكر بن حـــزم تتردد الروايات فى الموطأ « كتاب مالك الاشهر » فمالك انتفع بعلم أبى بـــكر عن طريق ولديه •

وأبو بكر : أبوه محمد شهيد موقعة الحرة وجده عمرو بن حزم رسول الرسول الى نجران • وأبو بكر قاضى عمـــر بن عبد العزيز على المدينة وواليه عليها وقد أمره أن يدون السنن من عند عمرة والقاســـم • وليس غريبا أن يكون ما جمعـــه أبو بكر بأمر عمر بن عبد العزيز من العلم قد آل الى النـــاس فى الموطـــأ •

وكذلك آمر عمر ابن شهاب الزهرى بجمع الحديث ومالك أكبر رواة ابن شهاب الزهرى • كما أمر عمر نافعا مولى ابن عمر أن يعلم المسلمين السنن •

بل ان نافعا يظهر فى تاريخ الرواية عن الرسول عموما وبين أشياخ مالك خصوصا فى أعلى مقام بين المحدثين •

وهو — فوق روايته عن عائشة أم المؤمنين — يعتبر الراوية الاكبر لمولاه عبد الله بن عمر ، وكان عبد الله أشبه أبناء عمر بعمر ، ونافع هو الذى يضع مالكا فيما سمى فى التاريخ (سلسلة الذهب) اجلالا لمكانها بين المحدثين أجمعين (مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر) •

وعمر بن عبد العزيز ذاته كبير الاثر فى مالك ، وعمر ينتسب الى عمر بن الخطاب بأمه ، أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب •

ولى الخلافة فأقسم أن يجعلها طريقا الى الجنة وبر كل البر بقسمه فيما يتعلق بنفسه وفيما يتعلق بالناس • فقادهم الى الجنة •

وكان مالك يهتز طربا كلما ورد اسمه فى مجلسه : بل هو جعل سيرته درسا من دروس الحلقة ، يرويه عبد الله بن عبد الحكم • وما سيرة عمر الا عدله الذى أثبت فوق تكامل النظرية الاسلامية فى الدين اذا سلك المسلمون سبيلها مخلصين،

ان دولة الظلم مهما طالت لا تستطيع الاستمرار اذا واجهها الناس بالاخلاص • وان مدة قصيرة جدا ـ ثلاثين شهرا ـ من خلافة عمر كانت كافية ليعود الناس فى الدنيا كلها الى الجادة ما دام خليفتهم يبدأ بنفسه •

* * *

ارتبط فكر مالك بأبى بكر وعمر ، من الاتباع الكامل ، بهذه الوشائج الجامعة ، كمثل ما ارتبطت المدينة كلها بالاتباع الكامل فى الفقه ، وهو بعض الفكر ، وفى السياسة • ولما قامت اثارة من شبهة نحى الحكم ـ من بين المرشحين الستة للخلافة ـ صاحبه عن الخلافة (وهو البرىء من الشبهة) فقد سأل عبد الرحمن بن عوف على بن أبى طالب (هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر ؟) وأجاب على : (اللهم لا • ولكنى أحاول من ذلك جهدى وطاقتى) فأرسل عبد الرحمن يده وقال : « هلم الى يا عثمان » وسأله (هل انت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر ؟) قال عثمان : اللهم نعم • قال عبد الرحمن : اللهم اشهد • اللهم اشهد ـ وبايع له •

والله يعلم ان عليا كان يجتهد اجتهاد أبى بكر وعمر ، كما أن عثمان اجتهد المسلمين ـ وسيجتهد لهم • لكنها ارادة الله جعلت عثمان يجيب جوابا يرضاه عبد الرحمن • وجعلت عليا يجيب بما لا يرضاه ، فيبسط يده يبايع عثمان ، وتبقى على

التاريخ حقيقة الاتباع ووجوبه فريضة على المسلمين مع الاجتهاد فيما لا نص فيه كما اجتهد عثمان نفسه بحثا عن حكم الاسلام. وسيبقى هذا الاجتهاد فرضا مفروضا على الأمة . يتابع عليه الأئمة .

والاجتهاد عند الحاجة اليه اتباع .

إِمَامُ الْمَدِينَةِ

ولم يكن لدار الهجرة بد من أن تتبع وان تلفظ البدع ، ففيها وقعت الأمور وصدرت الاقوال المطلوب اتباعها والواجب اذاعتها ، ووجد الرجال الذين صنعوا الصنيع نفسه وأذاعوا به ، ينزلون منازل الحياة ويتقلبون فى نفس المعاهد وتكاد تنطق بين أيديهم الاشياء ذاتها . ثم ان فى الاتباع نجاة من المجازفة وأمانا من الفرقة وسلامة فى الدين وطمأنينة فى الدنيا . يقول مالك : « السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق » .

والمدينة هى التى جعلها الرسول حرما آمنا ودعا على من يكيدها . فقول أهلها ورأيهم ليس كقول غيرهم ورأيه .وفى ذلك يقول مالك : انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة كذا فى كذا ألف من الصحابة مات منهم بالمدينة نحو عشرة آلاف وتفرق باقيهم بالبلدان .. فأيهم أحرى أن يتبع ويؤخذ بقولهم . من مات عندهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين ذكرت أو من مات عندهم واحد أو اثنان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم) وفى قول آخر لمالك : «ان الرسول صلى الله عليه وسلم قفل غزوة حنين فى اثنى عشر ألفا مات منهم بالمدينة نحو عشرة آلاف وتفرق ألفان فى سائر البلدان » .

* * *

كان المجلس الفقهى النبيل ينعقد فى أعظم مكان بالمدينة وتفد اليه الوفود فى كل عام لتضيف الى أداء الحج بمكة زيارة المدينة وفيها مسجد الرسول ومالك هنالك يجلس حيث كان يجلس عمر بن الخطاب نفسه ويسكن دار عبد الله بن مسعود نفسها •

وعبد الله هو المسلم السادس ومعلم الكوفة الأول والأستاذ الأعلى لأبى حنيفة •

والدروس تلقى فى المسجد أو الدار • فاذا كانت الحلقة لتدريس الحديث لم يخرج مالك الا اذا توضأ وتطيب وسرح لحيته ولبس ثيابا جددا وتعمم ووضع على رأسه لباس رأس طويلا وصلى ركعتين •

والمجلس غاص بالمتفقهة من كل أقطار الاسلام فى القارات الثلاث المعروفة • والشيخ كثير الصمت قليل الكلام • له كاتب يقرأ عليه « الموطأ » وله ـ كالسلطان ـ حجاب سود يقيمون من يأمر باقامتهم من المجلس وله هيبة تظهر فى لقاءات السلاطين والائمة والعلماء والولاة •

يقول الشافعى الذى لا يهاب « ما هبت أحدا قط هيبتى من مالك بن أنس » •

والشيخ يزداد علوا فى الدين وتواضعا فى العلم كل يوم • يقول ، ويعمل بما يقول : « من أحب أن يجيب عن مسألة

فليعرض نفسه قبل أن يجيب على الجنة والنار • فلينظر كيف يكون خلاص الآخرة ثم يجيب » •

وذلك أن هذا العلم دين • ولا فقه الا بورع •

ومن أجل ذلك كان لا يتردد فى أن يقول « لا أدرى » فى المسألة التى لا يستبين له فيها وجه الحق • وكان لا يستبق الحوادث أو يجيب على الفروض وانما يجيب عن مسألة وقعت تحتاج الى الجواب • أو تستلزم الاجتهاد •• فاذا راجعه السائل عن قوله (لا أدرى) ازداد اصرارا وقال : « نعم لا أدرى • وأبلغ من وراءك انى لا أدرى » •

ولقد يكون فى الحلقة أئمة المسلمين كأبى حنيفة أو الشافعى أو محمد بن الحسن امام العراق أو الاوزاعى امام الشام أو سفيان بن عيينة امام مكة أو الليث بن سعد امام مصر •• الخ • أو يكون فيها امراء المؤمنين المهدى أو الهادى أو الرشيد أو الامين أو المأمون •

* * *

كانت المدينة ومناقبها درسا من دروس الحلقة • أما الفقه فربما أمكن تحصيل طابعه مما يدرسه فيها ، اذ يحدث بحديث الرسول مثل : (اذا صلى أحدكم بالناس فليخفف • فان فيهم الضعيف والسقيم والكبير واذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء) فذلك هو التيسير فى الشريعة •

وينتقل الحديث من دروس العمل بالدين الى أصول الفقه .
فمن مقولاته (الاستحسان تسعة أعشار العلم) قاصدا بذلك العمل بمقاصد الشرع فى تحقيق المصالح للناس ، وبهذا طوع لمذهبه تحقيق كل مصلحة اسلامية لا يقدر على تحقيقها الذين يقيسون على نصوص بذاتها وجعل للمعانى المقطوع بهـا من مجموعات النصوص قوة النص القاطع فوسع على النـاس وعلى الحكام والقضاة .

هو فقيه عملى يعتد بالواقع فى اثبات الأحكام والنصوص. وبالعرف الذى يتعارفه الناس فيصيره فريضة . ويحتفل أعظم احتفال بسابقة العمل بالمدينة وباتفاق جماعة العلماء فيها . أخذا بالتطبيقات التى توارثتها . وانتفاعا بوضع البلدة المباركة وأهلها من الصحابة أو التابعين . فهو يجعل لها ولاهلهـا مزية علمية . بل هو يجعلها ويجعلهم طريقه فى الثبوت .

وأما الحديث فقد تصـدى لجمعـه وتصـحيحه فى كتابه « الموطأ » .

ولعل من أعظم دروس مالك للمسلمين رفضه أن يلزم الفقهاء رأيه اعلاء منه لشأن الاجتهاد . واعلانا منه أن فى اختـلاف الأئمة رحمة واقرارا بمخاطر الضعف الانسانى . يقول مالك :

« لمـا حج أبو جعفر دعانى .. فقال : انى عزمت ان آمر بكتابك الذى وضعته (الموطأ) ينسخ نسخا . ثم ابعث الى كل

مصر من أمصار المسلمين بنسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ..
فقلت : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل وسمعوا أحاديث وروايات وأخذ كل قوم بما سبق اليهم . وان ردهم عما اعتقدوه شديد فدع الناس وما هم عليه وما اختاره كل بلد منهم لأنفسهم » .

مع الخلفاء :

كانت المدينة مصدر الخطر على الخلفاء فى الدولتين العباسية والأموية لكثرة الخارجين فيها على الدولتين . فكان رضا امام المدينة أملا للخلفاء فى بغداد . وكان هوى مالك مع بنى أمية لأكثر من سبب : من عهد جديه الى عهد عمه الى عمر بن عبد العزيز . الى رضاه عن بنى أمية فى الأندلس وكانت لا تأخذ الا بفقهه واحتاجت اليه الدولة الجديدة . ففى حسن العلاقة معه اعلان بحقهم فى الخلافة يشهرونه فى وجوه الأمويين والعلويين والعلماء . ويجتذبون به قلوب المدينة وكان بينها وبين أبى جعفر أزمات ثقة . وأبو جعفر المنصور هو المؤسس الحقيقى للدولة العباسية وهو مؤسس بغداد ــ مدينة المنصور ــ أو دار السلام .

وكان ولاة أبى جعفر فى الأمصار يدعون الناس للبيعة لأبى جعفر . ودس الوشاة عن مالك أنه لا يرى صحة ايمان البيعة لانه يحدث بحديث (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) وحديث (ليس على مكره يمين) فأمر الوالى

بمالك أن يضرب بالسياط حتى انخلعت كتفه • لكن أبا جعفر دعا مالكا اليه واعتذر له بكل أنواع الاعتذار فعفا مالك عن والى أبى جعفر « لقرابته من رسول الله ومن أبى جعفر »

وخلف المهدى أباه فكان يبعث ولديه الهادى والرشيد الى حلقة مالك ويوصى مالك المهدى بمساعدة أهل المدينة فكان عطاؤه لهم اغداقا •

وأصدر الرشيد أمره الا يقطع واليه على المدينة أمرا دون مالك • فكان مالك ينصح الولاة ويرشدهم كما ينصح الرشيد وقد بعث الرشيد الى الحلقة ولديه الأمين والمأمون •

وألحت الفتن الداخلية والخارجية على الخليفة الورع • فكان يدخل الحرب عاما ويحج عاما • ومن خوفه على دولته تقدم بالرجاء الى مالك الا يحدث بحديث معاوية والسفرجلات — فالحديث يرفع قدر دولة بنى أمية • ونسى الرشيد أنه يطلب الكف عن تدريس السنن الى امام أهل السنن • وتذكر مالك أنه لم يتردد فى الحديث عن يمين المكره • فى عهد أبى جعفر • جد الرشيد — فتلا قوله تعالى : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات •• » الى آخر الآية وحلف ليحدثن بالحديث فى نفس المجلس وحدث : حدثنا نافع عن ابن عمر : « كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى اليه السفرجل فأعطى أصحابه

واحدة واحدة وأعطى معاوية رضى الله عنه ثلاث سفرجلات .. الخ .. الحديث [1] .

ورضخ الرشيد .

* * *

وتزاحفت الأيام وتزايدت الآلام على شيخ يعبر الثمانين الى التسعين فترك الخروج الى المسجد . وفى ربيع الاول سنة ١٧٩ مرض مرضا دام اثنين وعشرين يوما ثم دنا الأجل . وأحس امام المسلمين فتشهد وقال : (لله الأمر من قبل ومن بعد) .

فكان آخر كلامه .

---

(١) الحديث هامش ص ٧٦ .

الإمامُ
أحمدُ بنُ حَنْبَل

يقول المستشرق « لاوست » (ما من مرة هوجم فيها الاسلام سياسيا أو عسكريا الا اتجــه نحو المذهب الحنبلى ، الذى ينادى فى قوة وحماس بالرجوع الى السنة) .

وهذه الحقيقة المسلمة — فى كل حقب التاريخ عن قوة المسلمين بالاسلام واقتدار مذهب أحمد بن حنبل على أن يحقق النصر لهم — ترفع صاحب المذهب الى أعلى مكانة فى التاريخ العالمى ، باقرار الأوربيين الذين يرقبوننا من الشاطىء الآخر ليعرفوا مصادر قوتنا وأسباب تفوقنا .

وهذه الحقيقة ترى المتجاهلين أو المتشككين ، رأى العين ، أن التمســك بالســنة طريق المســلمين الوحيــد الى النجاح والاصلاح اينما كانوا . وفى أى عصر وجدوا . اذا هم نصحوا وصدقوا وكفوا عن عبادة الذات وعفوا عن الشهوات .. واخذ الدعاة فيهم أنفسهم بما يدعون اليه الناس .

يرى أحمد أن علاج الفساد فى العصر هو النزاهة الخلقية والزهد فى سعادة الحياة . فلا يقف عند ابداء الآراء يضرب الامثال للناس من نفسه ليصبح عنوانا للرجل العــادى على

الزهد مع الرجاء فى فضل السماء ويمسى حجة على المشرعين والحكام بأن النزاهة والاستقامة طريق الى الأفئدة .

ويرى توحيد منهج الامة على استنباط الاحكام من القرآن والحديث ، فيجمع نصوص الحديث من كل اقطار الاسلام . ويدونها بيده ، ولو كانت ثلاثة أرباع المليون . ثم يدرسها بنفسه فى حلقته . ليقدم الدليل الملموس على كفايتها للفتوى، فى ستين ألف مسألة . وكل أولئك لا ينهض به رجل واحد بل ينهض به العظماء من الرجال فى أجيال .

فالرجل العادى الذى يخاف الضياع فى عصور القلق . والدولة التى تحوجها الاحداث الى الاخذ بأسباب القوة . والجماعة الانسانية التى تريد أن تعرف من أين تبدأ وفى أى طريق تسير . كل هؤلاء يتلاقون على طريق أحمد بن حنبل .

الرجل الذى واجه المشكلات بصدق فصار أقوى من المشكلات . وقدر على نفسه فقدر على كل شىء عداها . وأمن به التاريخ اذ رأى – مرارا وتكرارا – صلاح المسلمين باتباع منهاجه . فتتابع المصلحون السياسيون والقانونيون والاجتماعيون الخالدون من اتباعه كالجيلانى وابن تيمية وابن عبد الوهاب . وقامت على تعاليم مذهبه دولة كبرى فى جزيرة العرب هى « المملكة العربية السعودية » تدلى بدلوها فى حضارة العالم المعاصر .

ولما قال فيه الشافعى – امام المسلمين الثالث – (تركت

بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أعلم ولا أورع من أحمد ابن حنبل) كان يقدم لأهل السنة امامهم الرابع •

امام الجهاد الاكبر ، الجهاد ضد النفس ، على مدار ثلاثة أرباع قرن بالصبر والشكر • وورع النفس والفقه والطريقة• وتطهير الأنفس بالزهد • وتفريق المال على الناس حتى يبلغ فقهه الذروة بالزام من عنده المال أن يحمل أعباء مجتمعه باطعام الجائع الذى يموت من جوعه والا صار مسئولا مسئولية قانونية كمن قتله!فأوجب عليه الدية•ويبذل المال عندالضرورة لمن ينتفع به مع بقاء عينه لصاحبه • — واسكان من لا مأوى له عند من لديه فسحة — وبتضييف الضيف زمانا • وبالتدخل فى ملك الغير للعمل لمصلحته فجعل المصلحة الخاصة مصلحة للجماعة • ويفرض التضامن الاجتماعى ويجعله مسئوليةقانونية على الاسرة والجماعة والدولة •

وهو امام الحرية القانونية واعلاء سلطان الارادة • يسبق فى تقريرهما أوربا بألف عام فهو لم يتقرر الا فى قانون نابليون سنة ١٨٠٤ م •

وهو المحامى الأكبر فى الفقه الاسلامى عن المرأة عموما والزوجة والأم خصوصا والمجتمع الصغير،الذى هو الاسرة، والكبير الذى هو الامة •

وهو العامل بيده — لا يهرب الى صومعة — بل يكسب قوته بعمل يده ، يعمل حمالا ليعيش ، ولا يستدين • ونساخا

لآخرين • ويلتقط الحب • وهو فى الذروة من أشراف العرب، « بأبيه وأمه وعلمه » •

وهو امام الحرية الفكرية والشخصية التىحاول قمعها المأمون بفرض آرائه على المسلمين وأوصى بها خلفاءه ، فقدروا على فرضها على الفقهاء الا على أحمد بن حنبل — وانما قدر أحمد على الخلفاء اذ عف عن جرايتهم ، ولا ترتفع الأنفس الا قدر ما تعف • •

وعند ما يتكاثر ما يتركه الرجال ، يرتفعون قدر ما يتركون: كهيئة القاعدة يرتفع فوقها تمثال •

وفى موقف واحد وقفه هذا الرجل للدفاع عن العقيدة وقى المسلمين آفات الخلافات التى دمرت أمما أخرى ، من قبل ومن بعد ، بالشحناء حوَل الآراء بين القساوسة وزعماء الكنائس أو بين هؤلاء وبين الملوك • كما جيشت الجيوش بالملايين واندلعت نيران الحرب عشرات السنين فى القرن السادس عشر الميلادى • وتساقطت الرءوس فى محاكم التفتيش • وتتابعت الهجرات التماسا للنجاة بالعقيدة وانقضت الامبراطوريةالتى جمع فيها « شارلمان » أوربا ثمانى قرون •

امام الزاهدين :

نحن الآن فى مطالع حكم الرشيد — وأحمد بن حنبل صبى يمشى بين شباب بنى شيبان ببغداد • خلفه أبوه القائد الشاب

وجده الوالى السابق بعد مولده سنة ١٦٤ بسنتين ، بين يدى أرملة شابة • وكانت شيبان فى الذروة والثروة ، منها أبطال جيوش المهدى والرشيد وفاتح العراق المثنى بن حارثة • ومنها أمير المؤمنين والخوارج وأصدق الشعراء عمران بن حطان • ومعن بن حارثة مضرب المثل فى الجود وأسد أخ الشعراء ومنها العلماء والمؤرخون والشعراء ورجال اللغة •

دفعت صفية بنت شيبان فتاها الى حلق العلم كما اندفع من قبله أبناء الصحابة والخلفاء • فامتاز بالورع بين الصبيان• حتى قيل انه كان يحيى الليل وهو غلام • وكان له عم يعمل فى بريد الرشيد فاستفاد من عمه مقاربة لمصادر الأخبار وتساقطت بين يديه الأقنعة عن حياة الكثيرين من السابحين فى بحار الرذيلة • ولما يفع أتيح له أن يجلس فى حلقة قاضى القضاة أبى يوسف سنوات ثلاث ثم اتجه الى تلقى الحديث على محدثى العراق كافة • فاتخذ جمع الحديث « مهمة حياته »

وانطلق بين أركان شبه الجزيزة العربية يجمع السنن من مصادرها مع الضيق والفاقة وانجلت الرحلات عن جمعه لثلاثة أرباع مليون حديث فلم يصنع أحد قبله أو بعده مثله •

ورفعه الورع درجات فقادته مهمة الحياة الى « طريقة الحياة » فأصبح العمل بالسنة دأبه فى كل أمره يقول : (صاحب الحديث عندنا من يعمل به) بل أصبحت السنن عالمه كله:يقول: (لست اتكلم الا من كتاب أو سنة أو عن الصحابة أو التابعين•

أما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود) • ثم أصبح — وهو الحافظ لاكثر الحديث — أكثر الناس فضائل أو احكام فقه •

وعلى ذلك أصبح أحمد بن حنبل قطعة من الفضيلة النبوية وفيها الزهد والصبر والحب والرحمة وشجاعة النفس والورع ثم أمسى مدرسة من الفقه فيها اليسر ورفع الحرج والحض على الحرية والاجتهاد •

وبالفضيلة والفقه بلغ أحمد أعلى مبالغة حتى ليضعه فى محله زميله (أبو ثور) حيث يقول : (لو أن رجلا قال ان أحمد ابن حنبل من أهل الجنة ما عنف على ذلك) •

* * *

وبالفضائل النبوية صار أحمد امام الزاهدين فى عصر لم يكن له علاج الا الزهد فيه • أليس هو العصر الذى نسبت فيه ألف ليلة وليلة الى الخليفة — الرشيد — الذى يقول فيه مؤرخ السدوسى مؤرخ بنى شيبان (جاهد بنفسه بما لم تطب به نفس أحد قبله • ولم يل خليفة منذ كان الاسلام مثل ولايته) والذى يحج عاما ويغزو عاما • وفى قصره مائة جارية يقرأن القرآن • ومع ذلك يفتك الفتكة البكر بالبرامكة وبأبناء على من أجل دولته ! ويستشرى أذى البذخ حوله ففى قصوره ألف جارية ولزوجته زبيدة بساط أنفقت عليه مليون دينار • ولما تزوجها أنفق سبعة وثلاثين مليون درهم • وذات يوم أولم له أخوه وليمة فيها طبق من (ألسنة السمك) كلفه ألف درهم •

وكان ابراهيم مغنيا عبقريا •

وسرت بدعة الغناء وأصبح للمغنيين بالقصر كادرا • ثم جاء كبير المغنيين ابراهيم الموصلى ببدعة البدع :

مدرسة الموصلى : تعلم الجوارى فنون الغناء وفنون الجمال • ومن دروس الجمال دروس للشكل ودروس للموضوع

أما الأولى فتبدأ بدرس فن الذوق ثم درس الملابس ومناسباتها ثم درس الجواهر ثم درس العطور واستعمالاتها والدرس الخامس فى الزهور واعدادها والدرس السادس فى المائدة وآدابها •

أما الدروس الأخرى • فأولها فن التحدث وثانيها آداب الجلوس وثالثها فى الهدايا ورابعها فى المراسلة •• ! فقلبت المدرسة المجتمع العربى البسيط الى مجتمع كسروى مكسال • وتجاوبت أصداء أصوات المغنيات خلف جدران بغداد فلما مات ابراهيم الموصلى خلف من صناعتيه (الغناء والجوارى) ٢٤ مليون درهم •

وامتدت العدوى فتغنى بيت الخلافة — فعلية — أخت الرشيد الجميلة — شاعرة ومؤلفة أغان وملحنة•وأخته العباسة تحضر مجالس لهوه وتحب جعفر البرمكى وتراسله • حتى اذا خلف الأمين أباه لم يتوقف فى الخمر عند حد وقسم أموال الدولة فى النساء والخصيان • فلما قتلته جيوش أخيه المأمون

تولى الخلافة ، كان المأمون يقول عن مغنيه اسحق بن ابرآهيم الموصلى (انه أكثر دينا وادانة من هؤلاء القضاة) حتى خلفه المتوكل فكان أكثر اسرافا واتلافا للمال على القصور والجوارى والمغنيات .

فاذا سألنا أين كان علماء ذلك الزمان ؟ سمعنا الجواب من فيلسوف عصره من ذى النون المصرى (كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها واليوم يزداد الرجل بعلمه حبا للدنيا وطلبا لها .)

* * *

وكان طبيعيا أن يرد المؤمنون على هذا الفساد برفضه ، والزهد فى مجتمعه . والرد على الفساد لا يكون بمصالحته وانما يكون بمقاطعة دنياه عند عدم القدرة على ازالته .

وعلى ذلك رفع أحمد شعاره الخالد (ما قل من الدنيا كان أقل للحساب) وما أعدل بالفقر شيئا . انى أفرح اذا لم يكن عندى شىء) والصوفية يعتبرونه اماما لهم لعملهم بالسنة .

وسر القوة فى الزاهد أنه يخرج الزاهدين من جاذبيــة الارض فلا يحوجهم لها بل يحوجها لهم .

وصدق أحمد زهده ــ فطعامه الخبز والخل أو كسرات من الخبز ولباسه الغليظ والرخيص . لكنه فى نهاية من النظافة ــ وقد تجد عليه جبة خضراء فيها رقعة بيضاء من صوف . وقد يريد ليرقع قميصه فلا يجد الا أن يقتطع رقعة من ازاره .

وذات يوم جيء بخف جديد فشغله قلبه فتركه وقال (الذى مضى أكثر مما بقى) أما ملحفته فتساوى خمسة عشر درهما. يجلس على لبد قد أبلته السنون . وأما قوام عيشه فمن أجرة حوانيت خلفها له أهله . والأجرة كلها بضعة عشر درهما فى الشهر .

وأصل أحمد فى الزهد ، كأصله فى كل فكره ، هو السنة ، لا تماوت ولا حركات ولا ادعاءات . وفقهه لذلك صريح فى اباحة الحلال . أما الحرام عنده فهو عبادة المال . يسأل بم تلين القلوب : فيقول : « بأكل الحلال . ويسأل عن الزاهد يكون معه مائة دينار أيكون زاهدا ؟ فيجيب (نعم . على شريطة أنها اذا زادت لم يفرح واذا نقصت لم يحزن) فاذا لاحظنا أن مائة دينار تعادل ايراد أحمد الشهرى أكثر من مائة مرة أمكننا أن نفهم قول ابن مسعود الاستاذ الأعلى للعراق فى الفقه والحديث والزهد (الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيهما ركبت . ان كان الفقر ففيه الصبر وان كان الغنى ففيه البذل).

وأحمد يعطى عطاء الاسخياء ، عملا بحديث الرسول : ان خير الناس مؤمن فقير يعطى جهده . وفقهه فقه الرحمة : يقاسم الكلب طعامه فيجوع مثله . حتى دودة القز لا يرى تعريضها للشمس الا لضروريات الصناعة . ولما طلب اليه رجل أن يدعو لأم مريضة قال : « نحن أحوج الى أن تدعو لنا . ولا يرى بناء القباب فوق القبور وتشييد الأضرحة . وليس التعصب

من شأنه : يسأل عن المسلم يقول للنصرانى أكرمك الله فيقول: نعم . يقول اكرمك الله وينوى بالاسلام .

* * *

امام أهل السنة :

لقى أحمد بن حنبل فى صدر شبابه الامام الشافعى بمكة فى موسم الحج فكان الشافعى يروى الحديث عنه ويقول له : « أنتم أعلم بالحديث منا . » ولقد ظل أحمد يجمع الأحاديث ثم راح يغربلها وينخلها حتى سجل فى كتابه (المسند الأعظم) أربعين ألفا . وسيكون من تلاميذ حلقته البخارى ومسلم ابن الحجاج ، وأبو داود .

والواقع أنه لا يوجد حديث فى كتب المحدثين ليس له أصل فى هذا المسند ومن ثم صح قول أحمد انه وضعه للمسلمين اماما .

وباجتماع السنة كلها وباللمسات الرائعة من شخص الشافعى وفقهه على مدى خمسة عشر عاما ، وفى مكة وبغداد والشافعى تلميذ مالك — وبدراسة فقه « أبى حنيفة » من كتب محمد ابن الحسن وأبى يوسف اكتملت لأحمد فى شبابه المصادر الأساسية للاحاطة بالفقه . لكن فهمه العميق الجذور للسنة ، وتطبيقه الشخصى لها على نفسه ، واتباع آثار الصحابة والتابعين فى كل شئون حياته قد ظهرت آثاره فى الورع . ثم

تجلت فى أصول فقهه لتنتقل من شخصه الى الناس جميعا ، فى شكل نظريات يطبقونها فى شئون الدنيا والدين .

فهو يضيف فى الاصول الى الكتاب والسنة أقوال الصحابة والتابعين لهم لأنها فى جملة أمرها اتباع للسنة . والصحابة هم خير الاجيال ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم والله سبحانه وتعالى يقول فيهم (محمد رسول الله والذين معه)

واعتمد أحمد الاجماع ان وجد ولم يقبل القياس الا اضطرارا وان كان عمله بأعظم قدر من النصوص والآثار عن النبى والذين معه وكذلك بأصل الحرية والاباحة وبأصل المصلحة قد صير فقهه أوسع فقه .

* * *

يقول تلميذه ابن تيمية (كل ماحتاج إليه الناس فى معايشهم، ولم يكن سببه معصية هى ترك واجب أو فعل محرم لم يحرم عليهم) وبهذا عملت الحرية جنبا الى جنب مع الورع فى المذهب . فأنتجا أرفع طراز من فقه المعاملات تتطلع اليه الحضارات ، طراز الحرية مع النزاهة ، طراز أحمد بن حنبل ذاته .

ومن الحرية قرر أحمد مبدأ سلطان الارادة وحرية التعاقد مع الاستغناء عن الشكليات والاجراءات والرسول عليه السلام يقول : (المسلمون عند شروطهم الا شرطا حرم حلالا أو أحل حراما) ويقرر أن ما سكت الله عنه عفو وفضل أباحه لعباده .

وما تفصح عنه الحاجة من معاملات يقع فى جانب الاباحة •

وللزوجة والأم والأسرة أرفع مكانة • فاذا اشترطت الزوجة على زوجها شروطا فى العقد فشروطها أحق الشروط بالاحترام ولا يقف مذهبه عند حد تقرير النفقة لها بل يترقى فيقرر حقها فى أن يجيئها زوجها « بمؤنسة » لها اذا دعت الى ذلك حاجتها وحق الأم فى المـذهب يعكس حقوق صفية بنت شـنيبان التى قدمت أحمد بن حنبل للمسلمين اماما • •

أما حقوق الأسرة والمجتمع فتمثل التضامن الاجتماعى فى أروع اشكاله • فأحمد يقرر النفقة للقريب المحتاج على كل من قد يرثه ومعروفَ أن الميراث فى الاسلام وسيلة ناجحة لتداول المال وتقسيمه •

وحقوق المجتمع عنده ليست أقل اثباتا لتضامن أفراده فالحق لا يمكن استعماله استعمالا سيئا • بل يتعين الاحســان فى استعماله وبهذا يستغرق احسان الاستعمال نظريات (تخصيص الحقوق — وعدم التعسف) •

وهو يجيز العمل فى ملك الغير لمساعدته كمن ينقب ملك الغير ليحفظ متاعه من السيل أو يذبح شاة قبل موتها ليحفظ ثمنها لصاحبها • له أن يرجع بما أنفق ويبيح لمن يدفع نفقة واجبة أن يرجع بها على الملتزم وبهذا يشـترك الناس فى المال وفى المسئولية (كزوج) لا يدفع أو (صاحب حيوان) يهمل •

وفى العقود يستلزم حسن النية وما هو الا أثر للورع فى التعاقد فيتساوى الظاهر والباطن وينضبط التراضى وتندفع الجهالة أو الاستغلال •

وهو يسبق بألف ومائتى عام نظرية الفقه الفرنسى التى تقررت فى القرن العشرين (الطارىء بما ليس فى الحسبان) ويسبقه فى قواعد المسئولية بما لم يصل اليه بعد • • اذ يلتزم المفتى الجاهل بمسئولية فتواه •

ويترقى فى التضامن الاجتماعى درجات فيقرر المسئولية على عاقلة المفتى أو على الدولة •

بل يوجب على دافع الزكاة أن يدفعها لمستحقها دون أن يحابى أو يبتغى محمدة أو دفع مذمة فهو كالقائم على المال العام • ولقد أسلفنا تقريره المسئولية على مالك الطعام اذا مات جائع ، أو الاشتراك فى السكن لمن لا مأوى له •

مـــع الخليفـــة :

فقه أحمد السياسى ، فقه الطاعة لولى الأمر والدعـــاء لـــه بالسداد ، وهو كأكثر المحدثين ، يرى أنه يكفى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أن يكون ذلك بالقلب واللسان ان قدر عليه دون الالتجـــاء الى القوة •

ولقد سأل عنه الخليفة أعوانه وهم يحاكمونه ليقتلوه أمامه فأجابوا : انه يرى طاعتك والجهاد معك •

وفى عصر المأمون كانت التيارات الفكرية لمقاومة الاسلام تستغل الحرية الدينية التى يتيحها الاسلام — فتدفقت الترجمات من العلوم الأجنبية من وثنية الاغريق وزندقة الفرس • وكان المأمون مدينا للمعتزلة بأنهم حزب الدولة ومنهم معلموه واعوانه • وكانوا يقدحون فى المحدثين • وأحمد امامهم • وكان أهم خلافاتهم معهم تدور حول القول (بخلق القرآن) فهم يقولون بوحدة ذات الله وصفاته ، وهذه الوحدة تقتضى أن الكلام صادر عن الذات — والله خالق كل شىء فالقرآن مخلوق •

أما أهل السنة فلا يقبلون المماراة فى الصفات التى وصف الله بها نفسه • ولا يتعرضون لها بتأويل ، ويرون — بحق — فى اضافة الصفات للذات المنزهة عن المشابهة بالمخلوقات تخصيصا لمعانى الصفات يليق بالذات الكريمة وكمالها المطلق• وهم يفوضون ولا يشبهون الله بمخلوقاته •

والتشبيه والتجسيم خطأ من أى جانب • والسلف لم يكونوا يخوضون فى هذا الكلام الذى لا طائل تحته • وعلى هذا الاساس أعلن أحمد موقفه : عدم الخوض فى المسألة حتى لا تثور الفتن كما ثارت بين أصحاب الديانات من قبل وكما ستثور فى أوربا فيتمزق أهلها دولا ومذاهب دينية من صنع الكنائس لا من صنع السيد المسيح •

وفى سنة ٢١٨ كان المأمون يقاتل الروم فى أقصى الشمال وأخذته صورة الميدان والسلطان ، فأمر بفرض رأى المعتزلة على المحدثين ، والفقهاء ، والقضاة ، واستجوابهم وقطع أرزاق المعارضين ، وقطع رقاب البعض ، وارسال باقيهم اليه ليقول السيف فيهم كلمته .

فأجاب الذين سئلوا بما أمر الخليفة . ورفض أحمد بن حنبل . فأرسل مقيدا الى الخليفة فى الميدان . حتى اذ كان فى مدينة « أطنة » مات المأمون فأعيد أحمد ليبقى فى غياهب السجن ثلاثين شهرا .

وفى سنة ٢٢٠ أجريت محاكمته فى مجلس المعتصم ليقر برأى المعتزلة فجادل بنصوص الكتاب والسنة فأفحم الخليفة والمعتزلة . وأخيرا علق الامام بالعقابين . وتعاقب عليه الجلادون حتى غاب عن عقله ، وطرحوه على الأرض ، وداسوا عليه ، فلما أفاق صلى والدم يسيل من ثيابه .

ثم أطلق سراحه ليعالج فى داره وبقى أثر الجراح فيه حتى آخر أيامه .

ويصف المشهد صاحب شرطة المعتصم فيقول : « ما رأيت أحدا لم يداخل السلطان ولا خالط الملوك أثبت من أحمد يومئذ . ما نحن فى عينيه الا كأمثال الذباب » .

وتابع الواثق أباه وعمه فأمر ألا يساكنه أحمد بأرض . ثم خلفه المتوكل سنة ٢٣٣ فعاد الى الجماعة ، فدعا أحمد الى

قصره ليقيم عنده أو يعلم ولى عهده • فلبى الدعوة وحمل معه زاده من الخبز والسويق ، ولم يطعم طعام الخليفة حتى هزل بدنه واعتذر بمرضه عن عدم العمل ، وعن عدم البقاء فى جوار الخليفة • ورفض عطاء الخليفة • وأخيرا أذنوا له فى أن يعود الى داره وحولوا العطاء سرا الى ولديه وأذنوا له وعمه فلما علم قطع صلاته بهم ، وسد الباب بينه وبينهم •

* * *

عبر الامام عتبات الخامسة والسبعين • وأمسى تستبد به وحشة العزلة التى صيره اليها تعاقب الأجيال ، وبرودة القمة التى صار فيها كالمغترب • وكان قد تزوج بعد السبعين من زوجة شابة ، فوضعت له بنين خمسة ، غير ابنين من زوجتين سابقتين • هما عبد الله الذى خلده التاريخ باعتباره راوية المسند ، وصالح الذى ولى القضاء من بعده ، وكانت الزوجة تغزل ثيابا حسنة فيأمر ببيعها ليستعين بها على النفقة لكنه استبقى منها ذات يوم ثوبا ليهيىء لنفسه منه كفنه •

وفى يوم الجمعة ١٢ من ربيع الأول سنة ٢٤١ قبض الامام• ومشى فى جنازته مليون رجل وامرأة أو أكثر ، ومنهم ذلك الذى قال : (دفن اليوم سادس خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعمر بن عبد العزيز) •

مطابع الأهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٢/٥٤٦١